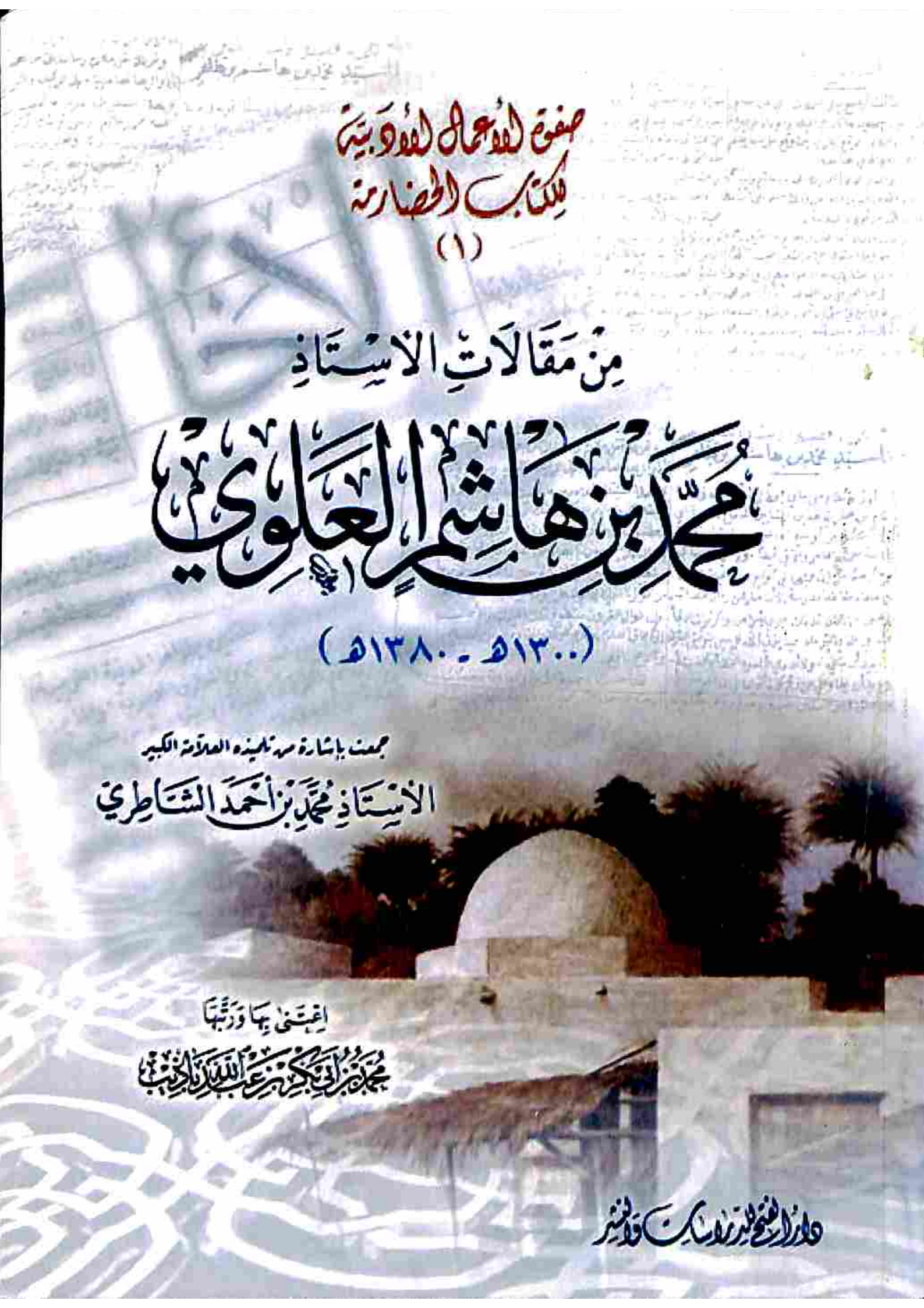
صفوة الأعمال الأدبية
لكتاب الحضارمة
(١)

من مقالات الأستاذ

# محمد بن هاشم العلوي

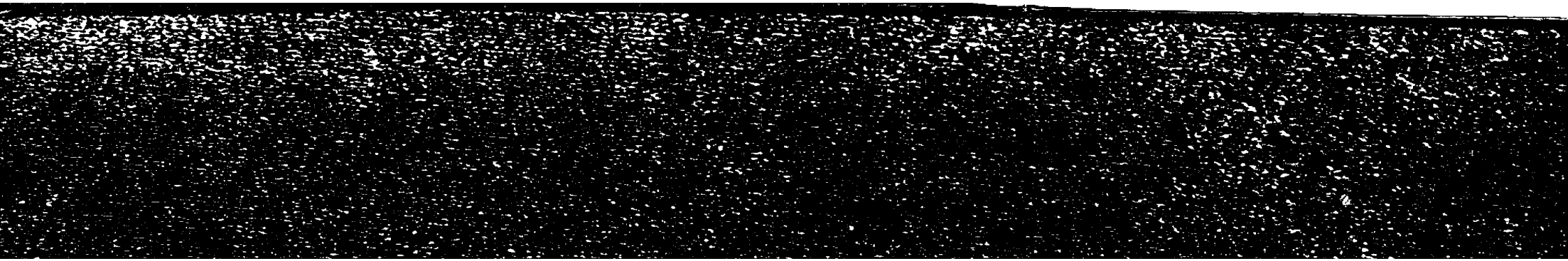
(١٣٠٠هـ - ١٣٨٠هـ)

جمعت بإشارة من تلميذه العلامة الكبير
الأستاذ محمد بن أحمد الشاطري



اعتنى بها ورتبها
محمد بن أبي بكر بن عبد الله باذيب

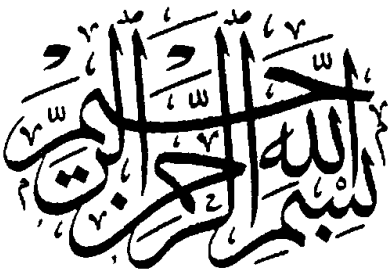
دار الفتح للدراسات والنشر





من مقالات الأستاذ

# محمد بن هاشم العلوي


بسم الله الرحمن الرحيم

من مقالات الأستاذ

# محمد بن هاشم العلوي

(١٣٠٠هـ - ١٣٨٠هـ)

جمعت بإشارة من تلميذه العلامة الكبير

الأستاذ محمد بن أحمد الشاطري

اعتنى بها ورتبها

محمد بن أبي بكر بن عبد الله باذيب

دار الفتح للدراسات والنشر

□ من مقالات الأستاذ محمد بن هاشم العلوي
جمعت بإشارة من تلميذه العلامة الكبير الأستاذ محمد بن أحمد الشاطري
اعتنى بها ورتبها: محمد أبو بكر عبد الله باذيب
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م
جميع الحقوق محفوظة ©
قياس القطع: ١٧ × ٢٤

للمراسلة والتواصل مع الناشر : محمد أبو بكر عبد الله باذيب
ص.ب : ١٣٠٢٧٠ جدة : ٢١٣٧٢ ، السعودية
جوال : ٠٥٠٦٦١٠٥٢١ (٠٠٩٦٦)
فاكس : ٦٣٣١٨٠٧ (٠٠٩٦٦٢)
بريد إلكتروني : maasbatheeb@hotmail.com



دار الفتح للدراسات والنشر
ص.ب ١٨٣٤٧٩ ، عمّان ١١١١٨ ، الأردن
هاتف وفاكس: ٥١٥٦٢٠١ (٦ ٠٠٩٦٢)

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing .

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال دون إذن خطّي سابق.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

# بين يدي المقالات

لطالما أشغل بالي وفكري القيامُ بجمع تراث كبار أدباء حضرموت، ولاسيما مَن قرب العهد بهم وبِنتاجهم من عصرنا الراهن، وقد استولت عليّ هذه الفكرة، وطفِقتُ أجمع من هاهنا وهاهنا كل ما تقع عليه يدي من تراثِ أيّ عالم أو كاتب أو أديب من حضرموت، سواء عاش في الوادي المبارك، أو عاش في مهجره، لاسيما الرجال المخلصون الذين سعَوْا في رِفعة الأدب الحضرمي ورقيِّ الأُمة الحضرمية فكرياً واقتصادياً وعلمياً وثقافياً وعلىٰ كافة الأصعدة.

ولا زال هذا الحلم يؤرقني، وذلك الهم يشغل فكري، وكلما سنحت فرصة لإبراز بعض ذلك التراث لم أتردد لحظة في إعداده وتحضيره للنشر والطباعة، رغبة في الإفادة العامة، وطمعاً في النفع المرجوّ من بعث هذا التراثِ المكتوب الهامّ الذي يشكّل ركيزةً من ركائز الفكر عند الشعوب قاطبةً، ويُظهرُ فضل أناس غيَّبتْهمُ اللُّحود عن أعيُن الأحياء، ولكنهم لا زالوا ــ هم أيضاً ــ أحياء بما تركوه من مآثرَ وكتابات وفكر مستنيرٍ يؤكّد للخلَف أنّ الخير كلَّ الخير في تراث صالحي السلَف، وأن البناء لا يتم دَفْعة واحدة، ولكن البداية من الأساس، والأساس بحمد اللّه متين لو كشفنا عنه، وأبرزناه للعيان.

وبعد؛ فهذه باكورة إصدارٍ لتراث أدبي مميز مما خلّفه شيخ الصِّحافة الحضرمية، الأستاذُ الكبير، والعالِم النِّحرير، أستاذ الأدباء، وأديبُ الأساتذة، السيد محمد بن هاشم بن طاهر العلوي، الذي كان من أبرز رجالات حضرموتَ في

مجـال الصِّحافة والكتابة الأدبية، ويُعد أستاذ الجيل في عصـره، وممن كان له يدٌ طُولىٰ في نهضة البلاد الفكرية والأدبية الحديثة.

ولقد رأيت له بعض المقالات في مجلـة «الإخاء» التـي كانـت تصدُر عن (جمعيـة الأخـوة والمعاونة) بتريم، والتي أسسها أنجبُ تلامذته وأشهـرُهم علىٰ الإطلاق، سماحةُ سيدي العلامة الجليل الأستاذ الحبيب محمد بن أحمد الشاطري التريمي رحمه اللّه، ومعلومٌ لدىٰ القارىء مقدار هذين الرجُلين وأثرهما الكبير في إصلاح البلاد، وهما مَن هما في سماء الأدب والعلم، فجمعت هذه المقالات في كراس.

ثُم قمت في مطلع العام ١٤٢٠هـ بعرض هذا العمل في مرحلته الأولىٰ على سماحة سيدي وشيخي الأستاذ محمد الشاطري، فباركه وأرشدَني إلىٰ أن أبدأ بطبع ما تحصَّلت عليه أولاً ثم البحثِ عما يمكن الحصول عليه من أخباره وبقية مقالاته وآثاره الأدبية.

فهذا هو ما تجمع لديَّ الآنَ من أدبيّات الأستاذ محمد بن هاشم، وسوف تتلوه أعمال أخرىٰ بإذن اللّه، ولا زلت أجمع وأضُمّ ما أتحصّل عليه من أدبياته بعضَه إلىٰ بعض، وأسأل اللّه تعالىٰ أن يكرمني بتحقيق ما أصبو إليه مِن لَمّ شعث ما تفرّق، وجمع ما تبعثر من تراث هذا العالم الجليل الذي غُمِر حيّاً وميتاً، ولم يُنصف كغيره من ذوي الفكر النير، والأقلام النزيهة.

واكتفيت عن ترجمته بما كتبه في حقه معاصرُه الأديبُ الجليل السيد عبد اللّه ابن محمد بن حامد السقاف في «تاريخ الشعراء الحضرميين»، وبما كتبه أستاذي السيدُ الأجَل عبد القادر بن عبد الرحمن الجُنيد في ثبته الكبير المسمىٰ «العقودَ الجاهزة في تراجم بعض الشخصيات البارزة»، وهذه التراجم تفي بالغرض من التعريف بالرجل، أما التوسع في الترجمة فأُرجئه إلىٰ حين آخر.

ومن المفيد جداً أن يعلم القارىء الكريم أن سماحة العلاّمة الشاطريّ سئل

عمَّن هو كاتبُ حضرموت؟ فأجاب بقوله: «تسألني مَن كاتب حضرموت الحقيقي؟ فأجيبك: إنه الأستاذ محمد بن هاشم»[١].

وستدور رحىٰ الإصدار الثاني بإذن اللّه، علىٰ تراث أستاذنا الكبير وشيخنا العلَم النِّحرير، الأستاذ العلامة محمد بن أحمد الشاطري، وقد تكامل تراثه لديّ أو كاد، وسوف لن يطول انتظار القراء له بإذن الكريم الجواد، واللّه الموفق والمعين.

محمد أبو بكر باذيب

جدة ــ السعودية

التاسع من ربيعٍ الآخر ١٤٢٦هـ

---

(١) من لقاء صحفي أجراه معه الأستاذ علي عقيل العلوي، ونشر علىٰ صفحات «الإخاء»، العدد (١٢)، السنة الثانية.



# السيد محمدُ بنُ هاشم بن طاهر[١] العَلَوي

## نسَبُه:

محمدُ بنُ هاشم بنِ عبد الرحمٰن بن عبد الله بن حسين بن طاهر بنِ محمد بن هاشم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمٰن بن محمد مَغْفُون بن عبد الرحمٰن ابن أحمد بن علَويٍّ بن أحمد بن عبد الرحمٰن بن محمدٍ (صاحب مِرباطَ) بنِ علي (خالع قسَم) بنِ علويٍّ بن محمد بن علويٍّ بن عُبيد الله ابن المهاجرِ أحمدَ بن عيسىٰ بنِ عليٍّ العُرَيضيٍّ بن جعفرٍ الصادقِ بن محمدٍ الباقرِ بن عليٍّ زيْنِ العابدينَ بنِ الحسين ابن فاطمةَ الزهراءِ ابنةِ الرسولِ محمّدِ بن عبد الله عليه الصّلاةُ والسلام.

من الأذكياءِ المعدودينَ بالأصابع، والعلماءِ النوابغ، والأدباء ذوي المواهب الخَصْبة.

ميلادهُ بقرية المَسِيلة موطنِ آبائه سنة ١٣٠٠ من الهجرة، وفي فضائها الواسع وهوائها النقيِّ وبين مزارعِها ونخيلها تراكَضَ العُمُر به في متداخَل الأيامِ والأعوام متنقِّلاً به مِن صفةٍ في النشأةِ إلىٰ أُخرىٰ في الارتقاء الجسمي والعقلي.

وفي وضوح التمييزِ تكاثَرتِ النياتُ الوالِديةُ إلىٰ تبكيره في الاستغلال الثقافي والاستقراء القرآني، وعلىٰ معلِّم أطفال القرية بصفةِ القيِّم علىٰ شؤون مسجدِها

---

(١) «تاريخ الشعراء الحضرميين» (٥: ٢٨٩).

الاستقصاء إلىٰ السورة النهائية والإتقان الكتابي، وحيث تجلىٰ في هاتين الظاهرتيْن بارعاً، فقد تعيّنَتْ حياته أن تكون صورةً من حياة آبائه وأجداده، حياةِ العلم والدِّين واليقين، ويصبحَ تلميذاً من التلاميذ الأحداث يتلقىٰ الأوّلياتِ الفقهيةَ وغيرَ الفقهية قبل التوغل والاستبحار.

ومتىٰ كانت الرُّجْعىٰ إلىٰ استعراض شيوخه الذين لهم الإضاءة لمواهبه ومعنوياته، نجدُه يحدِّثُنا عن الظاهرينَ مِن غمارِ عديدين، راوياً عن العلامة السيد محمد بن عثمان بن عبد اللّه بن عقيل بن يحيى، والعلامة السيد أبي بكر بن عبد الرحمن بن شهاب الدين، والعلامة السيد حسن بن علوي بن شهاب الدين، والعلامة السيد عبد اللّه بن عمر الشاطري، والعلامة الشيخ محمد بن علي الخطيب، علىٰ أنّ له من طوائفِ الأئمة والمرشدين الإجازة، وفي الطليعةِ العلامتانِ السيدان علي وحسين أبنا سيدنا محمد بن حسين الحبشي، والعلامة السيد عبد اللّه ابن محسن بن علوي السقاف، والعلامة السيد طه بن عبد القادر بن عمر السقاف والوالد الإمام.

ثم عند الفحص لحياة الشبيبة يبدو تواليها في الأكثر بين المسيلة وتريم، وفي رعاية والده مكفولاً ومشمولاً، إلىٰ أنِ اختطفه هادمُ اللذات بمدينةَ عدَنَ في محرم سنة ١٣١٥[1].

والواقع أن نبوغه كان مبكراً في مختلف الصفات العلمية، إلى الصفات الأدبية، وما مُناوَشتُه الشِّعريةُ مع العلاّمة السيد علي بن عبد القادر بن سالم بن علويٍّ العيدروس في سنة ١٣٢٢هـ، سوىٰ صورة من صورِه المبكرة الرائعة. ثم علىٰ أضوائه الثقافية الوهّاجة كيف لا يختطفُه القائمون بالنهضة الحديثة في الشرق الجاوي إلىٰ صفوفهم عندما ألقىٰ عصا الهجرة بتلك الأرجاء سنة ١٣٢٥هـ وهل

---

(١) قبره بقرية الشيخ عثمان في المدافن المجهولة.

يعثرونَ علىٰ أجدرَ منه أو مثلِه بتربية الناشئين وتهذيبهم وتثقيفهم، وما نَظَارتُه علىٰ مدرسة «شمائل الهدىٰ» بقِرْسي، ثم علىٰ مدرسة (فليمْبَان)، ثم علىٰ مدرسة «جمعية خَيْر» ببتَاوِي، ثم علىٰ مدرسة «شمائل الهدىٰ» بباكُلُنْقَان، ثم علىٰ مدرسة «حضرموتَ» بسُورَبَايا بمجهولة. وهل يجهلها الشرق كله؟

ومن قبَساتِه اندلعت أنوارُ المعارف بتلك الأرجاء، وفي المقدمة: الفقه، والنحو، واللغةُ العربية، والبلاغة، والأدب، والإنشاء، فوقَ التربية السامية، والأخلاق الفاضلة، والتدريب الرياضي، والروح النهوضي، والنشاط الاجتماعي. وبمثابته المؤسسَ للروح الثقافية الحديثة في الشرق الجاوي، كيف لا ينبُغُ عليه في العلوم المدرسية العددُ الوفير، وطوائفُ التلاميذ من مختلف الطبقات والأجناس والأوساط، إلىٰ الخَطَابة البليغة باللغة العربية الفصحىٰ الارتجالية المُعْرَبة، بعدَما كانت ألْسنتُهم أعجمية، عن مشاهدةٍ.

وقد يكونُ منَ المدهش الصعودُ بعديدٍ منهم إلىٰ تحرير المقالات الأدبية والاجتماعية بجمال باهر، وما مجلتهم (المدرسة)[١] بباكُلُنْقانَ بخافية، والحقيقة أن مجهود صاحب الترجمة لم يكن قاصراً علىٰ الناشئين الذكورِ فحسب، ولكنه تخَطَّىٰ إلىٰ البنات الناشئات، وفي مدينة (باكلنقان) له التلميذاتُ المتخرجاتُ بنبوغٍ في اللغة العربية وسواها[٢].

وقد لا يعلم الكثيرونَ أن شواغلَه المدرسيةَ ــ علىٰ كثرتها وتزاحمها ــ لم تقْعُد به كنشيطٍ عن تغذية المجتمع العامِّ بمقالاته الرائعة، وأشعاره البليغة في مختلف الموضوعات، وكانت جريدة «الإصلاح» بسنقفورة[٣] أُولىٰ الميادين

---

(١) يصدرها تلاميذ مدرسة «شمائل الهدىٰ»، وكانت تطبع علىٰ مطبعة حجَرية بداخل المدرسة.

(٢) كفرع خاص للبنات بمدرسة «شمائل الهدىٰ».

(٣) وهي أسبوعية، لصاحبها: «كرامه بِلَدْرَم التريمي»، وأول أعدادها ظهر في ٢ شوال=

لجوْلاتِـه الصحافية، قبل إصداره جريدتَه الخاصة «البشير» ببتاوىٰ سنة ١٣٣٢هـ، وجريدته «الميزان».

ثم عندما ظهرت في عالم الصحافة جريدة «الإقبال»[١] بسورابايا سنة ١٣٣٤هـ كان له الإشرافُ علىٰ كل مسطور فيها علىٰ بُعْد الدار بباكلُنْقان، فوقَ مقالاته وغيرِ مقالاته بها، حتىٰ إذا خلفتها جريدة «حضرموت»[٢] بسورابايا سنة ١٣٤١هـ تولىٰ رئاسةَ تحريرها، إلىٰ أن كان الوداعُ عند التخلي عنها بمقالٍ مؤثِّر نشرته له في ٢٠ صفر سنة ١٣٤٤هـ.

ومما لا ريبَ فيه أن المدة التي قضاها في هذه الرئاسة كانت شاقّةً إلىٰ الغايات، ولم لا، وكلُّها في الدفاع الإسلامي ضد الحركة الإرشادية، إلىٰ تصدِّيه كأحد ثلاثة[٣]، إلىٰ مناظرةِ زعيم تلك الحركة الشيخ أحمد السركتي السناري بمدينة (سورابايا) سنة ١٣٣٧هـ بدعوة رسمية من الحكومة الهولندية، ولما لم يكنِ العهدُ ببعيد، فإن الناس يعلمون أن المناظرة لم تقَعْ بالرغم من احتشاد زعماء الإرشاديين من كل طرف، وكيف تقع والشيخ أحمد السركتي عندما جَدَّ الجِدُّ اعتراه الارتعاش والنفَضَانُ كمن به حُمىٰ مُطبقة، وما وسِعَه غيرُ الهروب من (سورابايا) ليلاً يتبعه الخزي والعار والهزيمة إلىٰ مستقره ببتاوىٰ مخذولاً.

---

= سنة ١٣٢٦هـ بالطبع الحجَري إلىٰ عام ١٣٢٨هـ، حيث صارت تطبع بالحروف الرصاصية إلىٰ اندثارها سنة ١٣٢٩هـ عند سفر صاحبها إلىٰ حضرموت.

(١) لصاحبها الشيخ محمد بن سالم بن أحمد بارجا السيوني، وهي أسبوعية، واحتجابها النهائي كان سنة ١٣٣٩هـ.

(٢) لمنشئها السيد عيدروس بن عمر بن عبد الرحمن المشهور التريمي، وأول أعدادها في يوم الخميس ٧ ربيع الثاني سنة ١٣٤١هـ، واستمرت من غير توقف إلىٰ احتجابها سنة ١٣٥٢هـ.

(٣) والآخران هما: العلامة السيد عبد الله بن أبي بكر بن سالم الحبشي، من أهل شبام، والعلامة الشيخ علي بن محمد بن حسن الشِّبْلي من أهل حبان.

ثم قد يكونُ من الحُسْنىٰ الإشارةُ إلىٰ تزعّمه رئاسةَ البعثة العلمية المتوجهة من (جاوة) إلىٰ القطر المصري في شوال سنة ١٣٤٤هـ بصدَد الطلب العلميِّ في معاهدها، والعائدون إلىٰ أيامه بالقاهرة تبرُزُ لهم مقالاتُه في الصحف المصرية مثل: «وادي النيل»، وجريدة «السياسة»، كما تمد عنُقَها محاضرَتُه عن حضرموت بنادي الموظَّفين، ومحاضرته بدار الرابطة الشرقية عن جاوة.

ويشاء اللّه تعالىٰ في أثناء إقامته بالقاهرة أن يستحثه السادة آل الكاف بتريم في العودة إلىٰ حضرموت، وفي عام ١٣٤٥هـ بارَحَ البقاعَ المصريةَ في سبيله إلىٰ حضرموت، وفي تريم أدار مدرسةَ «جمعية الحق»، علىٰ أنه عندما تنحّىٰ عنها لم يفقِدْ عطْفَ السيد الكريم أبي بكر بن شيخ بن عبد الرحمن الكاف، وما «رحلته إلىٰ الثغرين» سوىٰ منظورٍ من المعية.

ثم مَن همُ الذين في حاجةٍ إلىٰ التعرف عن حياته الحضرمية، ومتىٰ كانت خارجةً عن مدارها العلمي والأدبي والاجتماعي والديني، إلىٰ الاشتغال بالتأليف وتثقيف الشبيبة التريمية، إلىٰ علم الفلك، فوق المحاضرات بنادي الشبيبة المتحدة، ونادي «الإخاء»، والتوجيهات الصالحة لمجلة «الإخاء» التي تُصدرها جمعية «الأخوة والمعاونة» سنة ١٣٥٧هـ[1]؟

ومما لا ريبَ فيه أن الذين يرقبون حوادثه يرَوْن تتابع ذهابه إلىٰ سيوون منذ سنة ١٣٥٥هـ والمكث بها الأيامَ بعدَ الأيام، كسكرتير عيّنَتْه الحكومة الكثيرية بسيوون للّجنة الوطنية والشؤون القضائية، كما في أُخريات حياة السلطان علي بن منصور، كان يستعينُ به في الشؤون التاريخية، ثم استعانة السلطان جعفر في ذات الشؤون الكتابية عقب اعتلائه عرش السلطنة الكثيرية في أواخر شعبان سنة ١٣٥٧هـ.

---

(١) تطبع علىٰ الحجر.

ومن هذه (الظواهر السيوونية)، كيف لا تُسفر تردُّداتُه إلىٰ (سيوون) وإقاماتُه بها المُددَ المتطاولةَ عن زواجه بها؟

وحيث استرسلنا في ذكرياته إلىٰ هذا المَقْصىٰ، فقد يجدُر أن نعرِّج علىٰ حُسْبانه من العلماء، فنشاهدُه لم يكن ظاهراً في مظاهرهم وشعائرهم ودروسهم، كما أنّ تلاميذَه في محدود الاختصاص سواءً في جاوةَ أو في حضرموت، ومع أنه من ذوي الاستقامة والسيرة العَلَوية، لم يكن من ذوي الأذكار المستمرة والقرآنيات والتهجُّدات بالمعنىٰ المفهوم، ولكنّ فيه مزايا وصفاتٍ من أجمل المزايا وأطيب الصفات، مثلَ: كرم النفس، وعفتها، ونزاهتها، والقناعة، ودماثة الأخلاق، والوداعة، والهدوء، والسكينة، والنفور من المجادلات والضوضاء، وحفظ اللسان والجوارح من كل شائنة، إلىٰ التؤدة والتأني حتىٰ في خطَبِه وأحاديثه، وعلىٰ هذه النغمات تتبَّعوا الاستماع إلىٰ كل طيبةٍ من الطيبات[1].

**مؤلفاته:**

١ ــ كتاب «دروس الطبيعة ودروس مدارج الإنشاء» في مجلدين.

٢ ــ و«شرح ورد جدِّه العلامة السيد عبد اللّه بن حسين بن طاهر».

٣ ــ و«تاريخ الدولة الكثيرية» في ثلاثة مجلدات.

٤ ــ و«الدور الكافي أو الثروة الكافية».

---

(١) ومن كلمات ألقاها العلامة السيد عبد اللاه بن حسن بن محمد بن أبي بكر بالفقيه في «نادي الشبيبة» بتريم سنة ١٣٥٠هـ عندما قدمه لاستماع أولىٰ محاضراته قائلاً: «شهرة هذا الأستاذ لا تحتاج إلىٰ تعريف به، وهو الطائر الصيت، والفارس المجلِّي، والطراز المعلم في كل ناحية من نواحي الحركة الفكرية، وفي كل مطلع من مطالع النهضة، بالمهجر والوطن، وله عبقرية وبراعة، وبلاغة وسحر بيان، تحبيره الطلقُ البليغ، وأسلوبه الفتان البديع، يخلُبَان الألباب، وله مع ذلك شاعرية عالية».

٥ ــ و«ذكرياتي».

٦ ــ و«رحلة الثغرين».

٧ ــ وكتاب «الخِرِّيت علىٰ المواقيت» في مجلد ضخم[١].

٨ ــ و«تاريخ جاوة».

٩ ــ و«النوافح الوردية في تقويم الهند الهولندية».

١٠ ــ عدا مجلته «مرآة الزمان».

١١ ــ والمحاضرات بجاوةَ والقاهرة وحضرموت المحفوظة.

١٢ ــ وأما مقالاته في الصحف السيارة فلو جمعت لبلغَتْ مجلدات.

**شعره:**

خياله الشعري خيالٌ رائع في متانة وبلاغة وبراعة وانسجام وجودة وقوة، ولو أن مجموعةً حُفِظَتْ من أشعاره لتكوّنت ديواناً ضخماً، له ميزته في كافة المظاهر، ومما فيه: المدائح، والمراثي، والأدبيات، والاستنهاضات، والنفْسيات، والسياسيات، والاجتماعيات، إلىٰ التشاطير والتخاميس.

## عتاب[٢]

إلىٰ سوح «وادي النيل» ينبعثُ العتْبُ ... وينقُمُ منها ما رمتْه بهِ الشعبُ

لكَ اللّهُ مِن (جرنالِ) بغْيٍ تناولتْ ... بإيذائها قوماً لها عندَهم حبُّ

حنانَيْكِ «وادي النيل» ما تبتغينَ مِن ... رجالٍ لهم في مُشمَخَرِّ العُلىٰ كعبُ

شِدَادٌ إذا عودوا لِطافٌ إذا رَضُوا ... رَزَانٌ إذا أُوذوا كرامٌ إذا سُبُّوا

---

(١) للسلطان صالح بن غالب بن عوض القعيطي تقريظٌ عليه.

(٢) نشرتها جريدة «حضرموت» في عدد شوال سنة ١٣٤٤هـ.

شحَذْتِ عليهم مِن يراعِكِ صارماً ... لِيقتطَّ منهم أنفُساً ما لها ذنبُ
وماذا جَنَوْا يوماً عليكِ فتشأري ... لنفْسِكِ ثأراً روحُهُ الشتمُ والثلْبُ
ولو كان هذا منكِ أولَ مرة ... عذَرْنا وقلنا جيّدُ الخيل قد يَكْبو
ولكنه يبدو كحقدٍ مؤصَّلٍ ... وذَحْلٍ تُجاهَ الفاطميينَ لا يَخْبو
نشَرْتِ قديماً عن عداهم مقالةً ... تكَدَّر مِن جرائها ورْدُكِ العذبُ
وها أنتِ أيضاً قد أتيْتِ بمنكرٍ ... منَ القولِ لا يأتي به مَن له لُبُّ
وللحِبِّ مِن فحوىٰ الخطابِ علائمٌ ... تنبِّىءُ حقاً أنه الرجلُ الحِبُّ
أغرَّكِ منا يا سعادُ تساهُلٌ ... وغرَّكِ مِن أقوامِنا الخلُقُ الرحْبُ
فإنْ قد عزَبْنا عن كلابٍ كثيرةٍ ... فعن مثلِ «وادي النيل» لا يحسنُ العزْبُ
لها عندَنا قدْرٌ جليلٌ ومركزٌ ... يباحُ بهِ في شأنها الطعنُ والضربُ
أجَلْ، في نباح الكلبِ مَن لا نُجيبُهُ ... ومَن ذا الذي يَعوي إذا نبحَ الكلبُ
وإلاّ فإنا واليراعُ بكفِّنا ... لنا مِن مجاري أنْفِه مُرهَفٌ عَضْبُ
يُكفكِفُ مِن غربِ القناةِ وينتهي ... بقاضيةٍ تدوي لها الغورُ والهضْبُ
ويركبُ مِن متْنِ الجَهَالةِ خُطّةً ... يَرُدُّ صدىٰ آثارِها الشرقُ والغربُ
يراعٌ يرىٰ في الأمنِ سهلاً مُسالِماً ... ولكنّهُ في الذعرِ مفترِسٌ صعبُ
نزيهٌ عن الفحشاءِ ما دام قادراً ... ويجعَلُها طِبّاً إذا عُدِمَ الطبُّ
حليمٌ جهولٌ ناسكٌ مُتهتِّرٌ ... كريمٌ لئيمٌ ليِّنُ المُجتَنىٰ صُلبُ
تجمَّعتِ الأضدادُ في عرَصاتِهِ ... ففي بعضِها سِلمٌ وفي بعضِها حربُ
إلىٰ النيلِ نشكو الساكنينَ ضِفافَهُ ... ونشكو إلىٰ مَن كان منهمْ له قلبُ
فقد نالَنا مِن بعضِهم ما أصابَنا ... بقرْحٍ لهُ في جوفِ أجسامِنا نَقْبُ
وقد رابَنا في بعضِهم أنّ سيفَهُ ... لنصْرِ عِدانا لا يُفَلُّ ولا يَنْبو
ولكنه إن رامَ يوماً كتابةً ... لإنصافِنا يَعْرو قريحتَه النضْبُ
يقلِّدُ ثلْبَ الخصمِ فينا بلاهةً ... لقد جَلَّ فينا مِن بلاهتِه الخطبُ
ويقدَحُ لا عن مصدرٍ ذي نزاهةٍ ... سوىٰ ذلك النبع الذي كلُّه كذْبُ

وقد ملأوا الدنيا صُراخاً بأنّنا ... أَشَرُّ الأُلىٰ مرَّتْ بأرضِهمُ السُّحبُ
فصبرٌ جميلٌ، ذو الجلالةِ بينَنا ... شهيدٌ، وعونُ المستعانِ لنا حسْبُ

## في العلم مِن قصيدة[1]

للعِلم يرحَلُ من بالجِدِّ يطلبُهُ ... إنْ جَلَّ في مُقلةِ الثاوي تغرُّبُهُ
والشرقُ أجدَرُ ما تحتَ السماءِ بأنْ ... يُؤَمَّ للعلمِ عُرْضَ اليمِّ ينهَبُه
فطالما ظلَّ في ذُلٍّ وفي ضَعَةٍ ... والجهلُ يرفَعُه طَوْراً ويجذِبُهُ
هَلْمُمْ بهِ أيها العلمُ الشريفُ فقد ... دُكَّتْ معالمُه وانحَطَّ منصِبُهُ
هَلْمُمْ بهِ فلعلَّ العلمَ يُسعِدُهُ ... يوماً لِما كان عندَ الجهل يحجبُهُ
وإن يتاحَ لهُ عَوْدٌ إلىٰ برةٍ ... قد كان يُعجبُها يوماً وتُعجبُهُ
هلاّ يرىٰ الشرقُ أنّ الهوْنَ ممتلِكٌ ... خِناقَةُ وخيالُ الغربِ يُرعبُهُ
بلىٰ، وإنّ كؤوسَ الذلِّ مُترَعةٌ ... أمامَهُ وهْوَ مُدنِي الكاسِ يشربُهُ
العلمُ أشرفُ ما تُرجىٰ النجاةُ بهِ ... وأشرفُ الشيءِ في التحصيلِ أصعبُهُ

وله:

عمَّمَ الوَسْميُّ قِيعانَ الرُّبىٰ ... فارتوىٰ ما ثَمَّ مِن رَنْدٍ وعُودْ
وإذا مرَّتْ بهِ ريحُ الصَّبا ... زحزَحَتْ عنهُ التجافي والصُّدودْ
فانثَنىٰ يختالُ في بُرْدِ الصَّبا ... ذاكراً ما كان مِن تلك العهودْ

## نظريّة

جلَّ ما أبدَتْهُ أفكارُ الورىٰ ... لم يكنْ إلاّ لأجْلِ الجسَدِ
من قطارٍ خَبَّ أو فُلْكٍ جرىٰ ... أو مَناطيدَ علَتْ للفَرْقدِ
أنا لولاهُ تسنَّمْتُ الذُّرا ... وترشَّفتُ رحيقَ السُّودُدِ

---

(١) نشرتها جريدة «السياسة» اليومية سنة ١٣٤٤هـ.

وفي عام ١٣٥٤هـ أرسل إليَّ هذيْنِ البيتيْنِ إلىٰ (سيوون) بصفةِ شُكر:

أتاني شبابٌ في القوارير جاهزٌ ... يُزَحْزِحُ آثارَ المَشيبِ إذا بدا
أيُهدىٰ شبابٌ يترُكُ الشيخَ يافعاً ... ويُتـرُكُ مبيَضَّ الثُّمامـةِ أسـودا

مِن نُتَفه:

أتــرانــي بعــدَ مــا أَهجــرُهُ ... أتمنّىٰ العَوْدَ في هذا القفَصْ
أو كــأيــامِ الصِّبــا أَذكُــرُهُ ... ناسياً ما ذُقْتُ مِن قطعٍ وقَصْ
إن يكــنْ هــذا الــذي أحــذَرُهُ ... فمتىٰ نأمَنُ مِن مسِّ الغصَصْ

## في الحياة

أصبـح الجسـمُ ثقيـلاً حِمْلُـهُ ... عائقاً بالروح عن نيْلِ الأمَلْ
سـامَهـا ذُلاً وأضحَـىٰ ظلُّـهُ ... بجوارِ الروح في أقصىٰ الثقَلْ
غيرُ مُرضٍ فـي حمـاها فعلُـهُ ... فـاعتـراهـا منـهُ ضيـقٌ وملَـلْ

ومِن مطوَّلة:

لذوي المكارمِ والنهوضِ عزائمُ ... ولمن غدا يهوىٰ الرُّقِيَّ معالمُ
والمكرُماتُ وإن تعاظَمَ نيْلُها ... فلدىٰ العزيمةِ يصغُرُ المتَعاظمُ
ومـؤسسـو دُورِ العلـومِ بـأُمـةٍ ... سُرُجٌ يُنارُ بها الظلامُ القائمُ
ورِثوا منَ الرسْلِ الكِرامِ مَواهباً ... تَعْنو الأنوفُ لهنَّ وهْيَ رَواغمُ
وتكفَّلوا حَدْوَ الشعوبِ وسَوْقَها ... فيقومُ قاعدُها ويمشي القائمُ
وتبوَّؤا مُهَجَ الأنامِ فأصبحوا ... ولهم بأعماقِ القلوبِ معالمُ

. . . إلىٰ أن قال:

طبتُمْ بني الزهراءِ أفعالاً كما ... طابَتْ بكم في الخافقَيْنِ مكارمُ
ونجا بكم وادي ابنِ راشدَ وهْوَ قد ... حامَتْ عليهِ منَ الهَنَاتِ حوائمُ
إنّـا بنـي وطنـي لَفـي عصـرٍ بـهِ ... موجُ المعارفِ في الورىٰ متلاطمُ

عصرٌ لُجهالِ الشعوب مُحارِبٌ ولمَن تحلَّىٰ بالعلومِ مسالمُ
عصرٌ بهِ ربُّ الجَهالةِ مُلجَمٌ خافٍ وربُّ العلم سيفٌ صارمُ

## ذكريات

ذكرياتٌ عن عهودٍ في الصِّغَرْ هاجَها نشْرُ الخُزَامىٰ والبِشَامْ
والدراري الزاهياتُ في السحَرْ خافقاتٌ كفؤادِ المستهامْ
عندَما همَّتْ يدُ الصبح الأغَرْ بعَروسِ الكونِ في رفْع اللِّثامْ
واستعَدَّ الظلُّ خوفاً للسفرْ مِن لظىٰ الشمسِ إلىٰ جوفِ الغَمامْ

## في الحياة

أيامَ لهْوٍ تمُرُّ مُسرِعةً كأنها في مرورِها حُلُمُ
يغشىٰ السرورَ بسُوْحِها كدَرٌ كما تغَشّىٰ أنوارَها الظلَمُ
فبابُها بالهمومِ مُفتتَحٌ وشأْوُها بالمَنُونِ مُختتَمُ
الدهرُ حقّاً أبو العظاتِ وهل شعوبُ إلاّ يدٌ له وفمُ

وفي مفتتَح مَرْثية يقول:

لا ينثَني عن مُضيِّهِ القلمُ مهما تسامَتْ في صَدِّه الهممُ
ولا يُنافي ما خَطَّه قلمٌ ولو برَتْه الشعوبُ والأُممُ
يراعُهُ الكائناتُ ينعدَمُ الودُّ منها ويوجَدُ العدَمُ
لها مَجاري الأقدارِ خاضعةٌ والكونُ طُرّاً وأهلُهُ خدَمُ
قد جهِلَ العالمونَ حِكمتَها فكم رنَوْا نحوَها وكم وهِمُوا
فلو دَرىٰ الباحثونَ ما جهِلوا عنها لَما بحثوا ولا عزَموا
ما استأثرَ الحقُّ بالارادةِ في تصريفه تُطوىٰ بهِ الحِكَمُ
فلا تنالُ العقولُ ذَروتَها ولا تحل الأفهامُ ما تسمُ
المرءُ والدهرُ يُرغمُه والناسُ تسعىٰ والموتُ يَخترمُ

تلـك الحيـاةُ ومـا الحيـاةُ إذاً ... إلا الصِّبـا فـالشبـاب فـالهـرمْ

ومِن مطوَّلةٍ في رثاء شيخه العلاّمة السيد أبي بكر بن عبد الرحمن بنِ محمد بن شهابِ الدين المتوفىٰ بمدينةِ حيدرأبادَ الهنديةِ في ليلة الجمعة (١٠) جمادىٰ الأُولىٰ سنة ١٣٤١هـ:

أرُونـا احتمـالَ الصبـرِ كيـف يكـونُ ... وكيـف بـهِ الخَطْـبُ المَهُـولُ يَهـونُ
تغـازلُنـا الـدنيـا فنصبـو وإنّنـا ... لَنعلـمُ حقّـاً إنهـا ستخـونُ
فكم مِن ذوي الآمالِ مَن راح وانْتَحَتْ ... دهـورٌ علـى آمـالِـه وقـرونُ
تهُـدُّ المنـايـا مـا بنَينـا مـنَ المُنـىٰ ... وقـد شِيـدَ منهـا فـي الحيـاةِ حصـونُ
عجيبٌ لذي الأموالِ يَزْهو تعاظُماً ... حِيـالَ المنـايـا و«الجنـونُ فنـونُ»
رمَتْنا الليالي بالمصابِ الذي وهَىٰ ... فـذابـتْ قلـوبٌ حـولَـهُ وعيـونُ
مصابٌ دهَىٰ الإسلامَ والعلمَ والتُّقىٰ ... فهـاجَـتْ بـهِ فـي الخـافقَيْـنِ شجـونُ
ودَكَّ المنـىٰ دَكّـاً مـنَ الـدكـنِ الـذي ... سيَعـروهُ مِـن عِظـمِ المصـابِ جنـونُ
تـولّـىٰ أبـو بكـرٍ ومـا مـات مَـن لـهُ ... مـآثـرُ فـي دُورِ العلـىٰ وشـؤونُ
قضـىٰ نـاشـراً للعلـمِ تبكـي لفَقْـدِه ... شـروحٌ أبـانـتْ فضلَـهُ ومتـونُ
إمـامٌ يحُـلُّ المعضـلاتِ بحكمـةٍ ... عليهـا وقـارٌ سـائـدٌ وسكـونُ
إذا مـا نطَقْنـا بـالقَـريـضِ فمـا لنـا ... سـوىٰ شعـرِه عنـدَ القـريـضِ مُعيـنُ

## حيْرة

إنّ مـا أبصَـرْتُـهُ أرّقَنـي ... هل لهذا الداءِ يوماً مِن دوا
ليتَ شِعري ما الذي أحرقَني ... أَبديعُ الصُّنع أم لَسْعُ الهوىٰ
لـم يكـنْ فِكـري وإن أرهقَنـي ... سـالبـاً منّـى تَبـاريـحَ الجَـوىٰ

وفي مطلع مطوّلةٍ يقول:

دَعْها تغرِّدُ في غصونِ رُبَاها ... فلعلهـا ذكَـرَتْ زمـانَ صِبـاهـا

# السيد محمد بن هاشم بن عبد الرحمٰن
# ابن عبد اللّه بن حسين بن طاهر
# المشهور بالأستاذ ابن هاشم[١]

ولد بمسيلة آل شيخ موطن أهله وأسلافه سنة ١٣٠٠هـ. وهو علاّمة متفنّن، نابغة العصر، وكوكب الأدب الذي تألق نوره في سماء القطر. الأديب الشهير، والكاتب القدير، لا تسمح الأيام بمثله وليس له نظير في علمه وفضله.

أخذ عن أكابر الرجال من أهل المسيلة وغيرها، كالحبيب عيدروس بن عمر الحبشي، والحبيب أحمد بن عبد اللّه بن حسين بن طاهر، والحبيب عبد اللّه بن حسن بن صالح، والشيخ حسن بن عوض مخدّم، والعلامة الناسك عمر بن عقيل ابن عبد اللّه بن عمر بن يحيىٰ. وأخذ عن الحُبَابة سيدة بنت الحبيب عبد اللّه بن حسين بن طاهر.

زاول مهنة التعليم والتدريس مدة طويلة بحضرموتَ والمهجَر.

سافر في أوائل شبابه إلى إندنوسيا، وأخذ بها مدة طويلة، وشارك في نشاطات كثيرة، واشترك في هيئات وجمعيات متعدّدة. ثم عاد إلىٰ حضرموت

---

(١) عن كتاب «العقود الجاهزة والوعود الناجزة في تراجم بعض الشخصيات البارزة» لشيخنا السيّد عبد القادر بن عبد الرحمن الجنيد، نزيل دار السلام بتنزانيا، حفظه اللّه تعالىٰ.

وتولىٰ الأستاذية بمدرسة «جمعية الحق»، ومدرسة «جمعية نشر الفضائل» بتريم. وقد أدخل فنوناً كثيرة في برنامج المدارس كانت لا تدرس بحضرموت، وطوّر المدارس تطويراً حسناً ونظمها نظاماً عصرياً. وأذكر عندما كنت طفلاً أدرس بمدرسة «جمعية الحق»، كان الأستاذ يلقننا النشيد المدرسي في كل أسبوع مرتين.

وتولىٰ أيضاً (سكرتارية) الدولة الكثيرية.

وقد أقام آخر حياته بمدينة تريم، وكنت أتردد عليه أنا وأخي حسن بن عبد الله الشاطري، فكم شنّف أسماعنا بفرائد الفوائد، غير أني نسيت الكثير منها لأنني اتكلت علىٰ الحافظة فخانتني.

ومما سمعته منه قال: إن الملك صلاح الدين الأيوبي لمّا تولّىٰ الإمارة، جعل يوماً معلوماً في الأسبوع تُعرض عليه فيه الهدايا التي تهدىٰ إليه. وفي يوم وهو جالس علىٰ كرسيه والهدايا تعرض عليه مختومةً وعليها اسم مهديها، لاحظ أن هناك مظروفاً صغيراً كلما عُرض للذي يقدِّم له الهدايا أبعده احتقاراً له وأخذ أكبر منه، فلما رأىٰ ذلك يتكرر منه قال له صلاح الدين: ناولني هذا المظروف الصغير، فناوله إياه، فلما فتحه صلاح الدين فإذا فيه مِروحة من خوص مكتوب عليها هذان البيتان:

أنا من نخلةٍ تجاورُ قبرا ... ساد مَن فيه سائرَ الخلق طُرّا
شمِلتني عنايةُ القبرِ حتىٰ ... جعلتْني في راحةِ ابن أيوبَ أُقرا

فقال لهم صلاح الدين الأيوبي: إنّ هذه الهدية مع صغرها هي أحبُّ وأعزّ عندي من كل هذه الهدايا الضخمة، وذلك بعد أن عرف أن هذه المِروحة نُسجت من خوص نخل مدينة الرسول صلىٰ الله عليه وآله وسلم، وأن مُهديَها من سكان المدينة ومن جيران رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأمر لصاحبها بجائزة عظيمة.

ومما سمعته منه هذه الأبيات:

قم فاسقِني قهوةً بنيّةً فضحَتْ ... بنتَ المدامِ وشَنِّف لي الفناجينا

تدعو إلىٰ كلِّ ما فيه النجاةُ، ولو تدعو إلى كلِّ ما فيه الفنا جينا
واللّهِ لو أنّ ألفاً يشربونَ لها قصْدَ النجاةِ وجدتَ الألفَ ناجينا
أمَا سمعتَ لسان الحالِ قائلةً اشربْ هنيئاً وقمْ ليلاً فناجينا

ومما سمعته هذان البيتان في الجاهل البسيط، والجاهل المركّب:

قال حمار الحكيم يوماً لو أنصف الدّهرُ كنت أَركبُ
لأنني جاهلٌ بسيطٌ وصاحبي جاهلٌ مركّبُ

وقال: إنّ هذين البيتين أول ما سمعتهما من الحبيب أحمد بن عبد اللّه بن طالب العطّاس (صاحب باكلنقان إندنوسيا)، وقال: إنّ هذا الحبيب كان مهاباً جداً، وكان يعاتب من يراه لا يتزيّىٰ بزي السلف. قال: وكنت وأنا بجاوى لا أبقي شعر اللحية، وكان الحبيب أحمد يعاتبني علىٰ ذلك، حتىٰ أنه منعني من أن أصافحه، فتوقفت عن زيارته مدة، ثم لُمتُ نفسي وقلت: مثل هذا الحبيب لا ينبغي البعد منه، بل ينبغي مني الحرص علىٰ القرب والاستمداد منه، ولا يمكن تكون اللحية هي السبب في ابتعادي عن هذا الحبيب، فبقّيت شعر اللحية حتىٰ طال، ثم زرته، ففرح مني غاية الفرح، ولازمته وصرت من المقرّبين إليه.

ثم إنه وصل إلى باكلنقان أحد المشايخ المترسّمين بالعلم، فأضافه أكثر أهل باكلنقان، وكل من أضافه يعمل مولداً ويدعو أعيان البلد، والشيخ الضيف هو يتولّىٰ قراءة المولد، إلاّ الحبيب أحمد لم يضيّفْه، فلامهُ بعض قرابته، فاستجاب له الحبيب أحمد وعمل ضيافةً ودعا إليها أكثر أهل البلد.

وحضر الشيخ، فقدِّم له كتاب المولد، وبدأ يقرأ المولد، فإذا هو لا يعرف القواعد النحوية، وصار يلحن لحناً مُفرطاً، وكلما لحن تأوّه الحبيب أحمد حتىٰ وصل إلىٰ قول صاحب المولد الشيخ الديبعي: «يسبح اللّهَ ذلك النور» فرفع لفظ الجلالة! فصاح الحبيب أحمد: الكفر ما سيبه، الكفر ما سيبه! وأمر بأخذ كتاب المولد من الشيخ وأمر شخصاً آخر يقرأ.

ولمّا انتهت قراءة المولد وجّه الحبيب أحمد الكلام إليّ وقال: ما الفرق بين الجاهل البسيط والجاهل المركّب يا محمّد بن هاشم؟ فقلت له: أنتم أعرف، أخبرونا، فقال: الجاهل البسيط هو الذي يعرف أنه لا يعرف، والجاهل المركب هو الذي لا يعرف ويدّعي أنه يعرف، ثم تلا البيتين السابقين.

كان الأستاذ ابن هاشم كثيراً ما يحضر مجالس الحبيب علوي بن شهاب، وكان الحبيب علوي يُسرّ به إذا حضر، ويظهر عليه الانبساط والانشراح.

وكان كثير التردد علىٰ الوالد، ويحضر قراءة قصيدة البردة كل صباح يوم الجمعة من كل أسبوع. وفي يومٍ ونحن نقرأ في كلام الحبيب العارف باللّه عمر بن حسن الحداد بعد قراءة البردة، أخذ الأستاذ يقص علينا من أخبار هذا الحبيب وكراماته الشيء الكثير؛ لأنه أدركه، وأخذ عنه، وذلك في شهر رجب سنة ١٣٦٨هـ، فطلبت منه الإجازة، فأجازني والحاضرين، وأهدىٰ لي نسخة من الجزء الأول من «تاريخ الدولة الكثيرية» الذي ألّفه هو، وهو في ثلاثة أجزاء كما أخبرنا، والذي طبع هو الجزء الأول فقط.

توفي الأستاذ ابن هاشم بتريم في شهر صفر سنة ١٣٨٠هـ، ودفن بزنبل تريم، وأبّنه قبل الصلاة عليه الحبيب علوي بن شهاب بجبانة تريم.



* * *

# قالوا في الأستاذ ابن هاشم

قال تلميذُه العلاّمة الأستاذ الشاطري:

أيها المولىٰ هناءً دائماً ... فلقد علمتَنا ما وَجَبا
لم يجازُوكَ سوىٰ أن جعَلوا ... لفظةَ الأستاذِ منهم لقَبا

وقال أيضاً:

ذو المجد مرفوعُ الجَنابِ محمّدٌ ... أستاذُنا مَن بالتقدمِ يُعرَفُ
وإذا ارتقىٰ عرْشَ الخَطابةِ لم يزَلْ ... كالسيل لا يَلْوي ولا يتوقفُ
إن حَثَّ حرَّك أو تكلم مادحاً ... أطرىٰ وإن وعظَ المدامعُ تَذرِفُ
وإذا أناملُهُ جرَتْ لكتابةٍ ... أبدىٰ العُجَابَ يراعُهُ إذ يُرعِفُ
تكفيهِ نسبتُه إلىٰ مَن طُهِّروا ... عن كلِّ رجسٍ، والشهيدُ المصحفُ
إن كانت العلياءُ لا ترضىٰ بهم ... فإذاً جميعُ الناسِ منها تأنَفُ

❊ ❊ ❊



من مقالات الأستاذ

# محمد بن هاشم العلوي

(١٣٠٠هـ - ١٣٨٠هـ)

وهي مجموع ما نشر في مجلة الإخاء
الصادرة عن جمعية الأخوة والمعاونة بتريم حضرموت
للفترة من: محرم ١٣٥٧هـ إلى جمادى الآخرة ١٣٥٩هـ

اعتنى بها ورتبها

محمد بن أبي بكر بن عبد الله باذيب

دار الفتح للدراسات والنشر



# الشِّعْرُ ٱلدَّارِج[١]

## (١)

مقصـودُنا من هذا المقـال المتسلسل إظهارُ النفسيّة الحضرميّة بأبسط مظاهرهـا في الشعـر الحضرمي الطبيعـي، أي: الشعر الذي تتعشقه نفـوسُ الجماهير من سكان حضرموت، وتجري عليه في جميع ظروفها، من حالات بؤسها ورخائها، وإبّانَ فراغها وأشغالها، وهُو الشعر الدارج الذي يُنبئك تماماً بروح الأمّة الحضرميّة، ويعطيك صورةً طِبْق الأصل من مناهجها في الحياة، وهَيَمانِها في كلِّ وادٍ من أوديتها: الخياليّة، والحقيقيّة.

والشعرُ الدارج الذي نَعنيه هنا ليس هو ذلك الشعرَ المتصنَّع الذي يتنمَّق فيه بعـض المتعلمين وينظمـه أفراد من خاصـة الشعـب، فيقلـدون به أشعار الجاهليـة ومن بعدهم من الشعراء المتعلمين الذين ينظمون ما ينظمـون بلغة قريش، ويتقيّدون بنحوها وإعرابها، وينسُجون علىٰ أوزانها وآدابها.

وإنّما نعني بالشعر الدارج: ما تُمليهِ الطبيعة علىٰ ألسُن العامّة، فيلفظون به صفْحـاً عفواً من دون مبالاة بالإعراب، ولا تقصُّدٍ لفصيح اللغة، والالتزام

---

(١) مجلـة «الإخـاء»، العدد الأول، السنة الأولىٰ، عـام ١٣٥٧هـ، مارس ١٩٣٨م؛ (ص: ٣).

للأوزان المعهودة، وهٰذا هو الشعر الحقيقي المطبوع.

وهو رسول الجوانح، وتُرجمانُ العواطف، وهو المرآة الصادقة التي تجلو لك نزَعات الجمهور ومشاربَهم واتجاهاتهم في أذواقهم.

**هل الشعر هو الوزن؟**

إذا ضربنا صفحاً عما يقوله ذوو الأبحاث النفسيّة عن تعريف الشعر وحدِّه، وذهبنا فقط إلىٰ ما يعرّفه به علماء اللسان من أنه: الكلام المقفّىٰ الموزون، رأينا أنفسنا متمسكين بلا شيءٍ في تعريف الشعر، لا في عِيرِه ولا في نَفيرِه، ورأينا حدّاً أجوف، لا مانعاً ولا جامعاً، كما شرطه علماء البيان.

والعرب لم تقل للشاعر: شاعرٌ؛ إلاّ لأنّه يتذوّق ألوان الحياة، ويتفيأُ ظلالها، ويرتَعُ في أكنافها، سميعاً بصيراً، ثمَّ يحمل ريشته فيصوّر بها للجمهور لذائذ الحياة ومشاغلها، ويسُلُّ مِن فيهِ لساناً صارماً يترجم به ما تناجيهم به الطبيعة من سوانحَ وصرائح، ورموز وإشارات.

ولم تسمِّه العرب شاعراً لأنّه يحسِن فقط صبَّ الكلمات في قوالبَ محدودة الحجم، ولأنه يجعل كلَّ جملة من كلامه مساوية للأخرىٰ في أوتادها وأسبابها، وبعبارة أخرىٰ: في حركاتها وسكوناتها، وفي مسافاتها ومساحتها؛ لأن الشعر والشعور والشاعريّة يخالف كلُّ هذا في أصل الوضع.

وإنّما سمّي الشاعر شاعراً: لشعوره الدقيق، وتأثره بما يعتَورُه من مغذّيات الطبيعة والبيئة والوسط والمحيط، إنْ خيراً وإنْ شرّاً، ولم يكن الوزن حينئذٍ إلاّ خِلْعةً قَشِيبة، تبرز فيها تلك الأُحسوسة، ويَمِيسُ فيها ذٰلك الشعور.

ونحن، وإن كنّا شكَرْنا للخليل بن أحمد، وللأخفش، وأمثالهما من علماء العَروض، جهودهم العملاقيّة في خدمة الأوزان العربية وضبط بحارها

وقوافيها، غير أنَّ ذلك لا يمنعُنا عن القول بأنَّ العواطف النفسيّة أعظمُ وأجل من أن تتقيّد في ثورتها وجموحها بشيء من قيود الخليل وزملائه.

ولسنا ــ رعاك اللّه ــ مَن يعيبُ الوزنَ في الشعر ولا الشعرَ في الوزن، ولا ممّن يتعاظم في رأيه فيتأبّط مِعوَله لتحطيم تقاليد العرب في أوزانها وقوافيها، وإنّما نحن نشفق علىٰ أولئك الذين يتصورون أنَّ الشعر هو الوزن، وأنَّ الوزن هو الشعر، ثمَّ لا يتصورون وراء هذا الأفق القريب شيئاً.

إذا أنتَ لم تعرِفْ سوىٰ الوزْنِ وحدَهُ فقُلْ: أنا وَزّانٌ وما أنا شاعرُ

ويفوتنا خيرٌ كثير وأدبٌ جمٌّ لو أنَّ النّاس اجتمعوا علىٰ شعورهم وأحاسيسهم وآهاتهم وأنّاتهم أن لا تَبرُزَ إلاّ علىٰ «قانون الخليل» ومستفعلاته.

ولا ندري ماذا يكون مفعول تلك الآهات والأنّات في أجواف أربابها الذين لا يريدون انطلاقها إلاّ علىٰ أجنحة (فعولن فعولن)، وهم يجهلون هذه الأوزانَ ويجهلون لغتها؛ فإمّا أن تُقْضىٰ علىٰ حياتهم كمَداً، وإمّا أن تنفجرَ جامحةً بهم، فلا يَرُوعَهم إلاّ وهم يشعرون من حيث لا يشعرون.

**اللغةُ الدّارجة:**

ولا يكونُ الشعر الدّارج إلاّ باللغة الدّارجة؛ لأنّها لغة المحيط الذي يخاطبه الشاعر، ويسعد بالإفضاء إليه بما يُكنّه ضميره وتجيشُ به نفسه. وإنّه ليكون أعظمَ سعادةً عندما يسمع شعره يُنشَر في الحفلات، ويُتغنىٰ به في السهرات، ويُذهب به مذهبَ الأمثال في وقائع الأحوال.

وباللغة الفصحىٰ ــ لغة قريش ــ يتفاهم جميع الناطقين بالضاد في أكناف البسيطة، غيرَ أنك تجد لكل قطر من الأقطار العربية لغةً دارجة ينطق بها عامةُ الأهالي، بل وخاصتهم، وهي قد تُفارق الفصحىٰ في كثير من أوضاعها واصطلاحاتها وألفاظها؛ وربما بَعُدَ كثيراً علىٰ أهل كل قطر أن يفهموا حق

الفهم مناهج اللغة الدارجة للقطر الآخر ما لم يقيموا زمناً طويلاً فيه .

ولحضرموت لغةٌ دارجة هي وليدة الفصحىٰ، غير أنَّ بها ــ ككلّ لغة دارجة ــ ألفاظاً جمّةً لا وجود لها في المعاجم، واصطلاحاتٍ لا تطبق علىٰ اصطلاحات الفصحىٰ، وتصاريفَ زائدةً علىٰ التصاريف المعهودة في اللغة .

وقد ألّف المغفور له السيد محمد بن أحمد بن يحيىٰ العلوي كتاباً جمع فيه مئات من كلمات اللغة الدارجة الحضرميّة التي لا أصول لها في معاجم الفصحىٰ، وذكر بإزائها معانيَها موضحة، وكنتُ قد اقترحتُ عليه يومئذٍ أن يُزين كتابه بمقدمة يذكر فيها الاصطلاحاتِ والتصاريفَ المولدة في اللغة الدّارجة، وأمددْته بشيء منها، غير أن أجله قصَّر به عن إتمام ذلك ولم نذْرِ بعدُ أيُّ رفّ أقلَّ كتابَه ذاك!

وإنّه ليلوحُ لي أنَّ اللغةَ الدَّارجة يتسع صدرُها للاجتماعيات الشعبيّة أكثرَ من اتساع صدر الفصحىٰ لها، لأنَّ الدّارجة لغةُ نطق وعمل، ولغة اتصال واحتكاك بجميع طبقات الشعب: الشيخ والطفل، والرجل والمرأة، والعالم والجاهل، والكاتب والأُميّ، وإنّما الفصحىٰ لغة كتابة وقراءة فقط، وإنّما يُنتقَىٰ فيما يُكتب فيها ما يلائم مدارك المتعلمين والمتهذّبين، وعلىٰ هذا يكون شعرها ناقص الدِّلالة على اجتماعيات الأمّة ونفسيتها .

فأي شعر فصيح لشاعر حضرميّ يدلنا علىٰ الحال الذي يدلنا عليه البيتانِ الدارجانِ الآتيان، اللذان قالهما الشاعر بازياد من قاطني (شِبام)، مخاطباً قرينه عليّاً في إحدىٰ السهَرات التي اعتاد أهل شِبام أن يُحرِّشوا فيها بين هذين الشاعرين ويتسلَّوا بمُهاجاتهم، فقال بازياد:

يا عليْ خُذْها نصيحهْ ... من صديقَكْ با زيادْ
الشَّتْم بيني وبينَكْ ... والضِّحِكْ لاهْلِ البلادْ

# الشِّعْرُ ٱلدَّارِج[١]

## (٢)

**التناسُق في الوجود:**

يُقال: إنَّ الموسيقىٰ شعرُ الأنغام كما أنَّ الشعر موسيقىٰ الكلام، ونقول: إذا لم يكُ هذا القولُ كله حقيقة سَائغة فإنّه لا يخلو حينئذٍ من مِسْحةٍ منها تبدو للناظر في أول وهلة، وإنَّما جعل الموسيقىٰ شعراً والشعر موسيقىٰ، لأنَّ التناسق يشمُلُ كلاًّ منهما، ويبعثُهما علىٰ مُناجاة الأرواح والصعود بها إلىٰ عوالمَ عُلويّة شائقة، وعلىٰ مخاطبة النفس والتغلغل بها في مهاوٍ متشعبة، وربما لا يتسنىٰ لكل منهما الوصول إلىٰ شأوِه ذلك لولا هذا الحادي السحري.

وإذا كان هذا التناسقُ، أو التناسب، أو النظام، أو الترتيب، أو الوزن، أو أيُّ لفظ آخر مما يدلُّ علىٰ مثل هذه المعاني، إذا كان ذلك له أثره الفعال في الأرواح والنفوس متىٰ اتصل بشيء من هذه المسموعات، فإن للمنظورات المتناسقة حظَّها أيضاً من الشاعريّة، يتسرب إلىٰ الباطن فيثيرُ كَوَامن الأرواح والنفوس.

فالألوان الزاهية المتناسقة، والنجوم المتألقة في كبد السماء والمكتنفة

---

(١) مجلة «الإخاء»، العدد الأول، السنة الأولىٰ. (ص: ١٠ ــ ١١).

بقمرها المنير، والهضاب الخضراء الممتدة إلىٰ ما تحت الأفق، وغير ذلك من المناظر الطبيعية، وكذا الصناعيّة، كل ذلك شعر يحدو بالأرواح والنفوس إلىٰ ما هي مستعدة له من الغايات.

وما الرقص والزفْنُ والاهتزاز علىٰ التوقيعات الموسيقية، إلاّ أثرٌ ناشىء من الانفعالات النفسية أو الروحيّة التي تسببها التلحينات المطربة أو الإنشادات الشعريّة، وربما اكتسبت تلك الاهتزازات والحركات المنظمة نفسُها شكلاً هندسيّاً يبهج الناظر وتُحرّك كوامنَه، فتصيبُ بذلك حظّها أيضاً من الشاعريّة.

وعسىٰ أن لا تجدنا ــ أيّها القارىء ــ شططنا بعيداً عن موضوعنا «الشِّعْرُ الدَّارج»، فإننا لا نُريد نَرقُبُه عن كثب، لأنَّ زبدة مقالنا هذا هو: أنَّ الشاعريّة أعمُّ من أن تنحصر في الكلام المقفّى بقوافي الخليل ــ رحمه اللّه ــ والموزون بموازينه.

ونحن وإن يكن اعترافنا أكيداً بأنَّ الشعر الفصيح أشدّ وقعاً في نفوس الخاصّة من الشِّعر الدَّارج، وأقوىٰ تأثيراً، وهو ــ بلا ريب ــ أغزرُ معنىً، وأقومُ فكرة، وأبدعُ لحناً، ولكنه يقصر عن زميله الدَّارج في تصوير الحياة العامة كما وضحْنا ذلك من قبل.

## الغزلُ في الشِّعْر الدَّارج:

الشِّعر الدَّارج هو شعر ساذَج بسيط تستسيغه أفهام العامّة وتتقبله أذواقهم وترتسم به أذهانهم، ومن أجْل هذا، نجد الغزل به بديهياً وخالياً عن التشبيه البديع والمعاني المستنبطة، وربما استُهجنت به بعض التشبيهات المبتذلة التي يقلد القوم فيها بعضُهم بعضاً من غير تفكير ولا تروّ، فتشبيه الكِفْل والعجز بالدعص أو الكثيب قد يجيء في الشعر الفصيح ويمرّ به الذوق فلا يصعب عليه هضمه، أما بتشبيهه بالمركب الماخرة في اللجّة ثمَّ التفريع عليه بأنَّ قبطانه

يرطـن برطانة هنديّـة أو فارسيّـة، وأن شحنته عنبر أو زعفران، وأنه وردَ من المدينـة الفُلانية قاصداً إلىٰ إقليـم كذا، فهو من نتائج الخيال الفاسد والذوق السقيم، ويقرب منه تشبيه الأنف بالخِنجر ألاّ أنّه أخفُّ وطأة مما قبلَه.

وأنـتَ ــ حفظك اللّه ــ إذا طالعـتَ غزليّـات (خُـو علوي) وتشبيهات (يحيىٰ عمر) ــ وهما من المتبرزين في هذا الموضوع ــ تجـد فيها كثيراً مما ذكرنـا، وقد تابعهما الجمهور علىٰ ذلك تقليـداً وتسليمـاً مـن دون نظر ولا توقف.

ولا يحسَبنّ القارىءُ أن الأساليب الراقية التي تستهوي أذواق الخاصة في الشعر الفصيح ستعمل معانيْها نفسَ عملها في أذواق العامة لو نقلت إلىٰ الشِّعر الدَّارج. كلاّ! فإن لأولئك مميّزات وتصورات قد تقصر عنها مميزات هؤلاء وتصوراتُهم.

وكذلك قد ترىٰ من الخاصة رجالاً برعوا في الشِّعر الدَّارج، فأتَوْا في غزلهـم بعُجابٍ من القول يستهوي الخاصّـة والعامّـة معاً؛ ولكنّه لا يلبث أن يتولىٰ إلىٰ درك الإسفاف لو سُبك معناه في الشِّعر الفصيح! ذلك لأنَّ الأساليب الدَّارجة تتحمل من المعاني الساذجة ما لا تتحمله الأساليب الفصحىٰ، وما ذاك إلاّ لأنَّ هـذه قد أصبحت مسرحـاً لذوي الخيـالات الراقيـة، فلا يجمُلُ فيها المعاني المبتكرة والتوليدات البديعة، فإن لم يكن هذا، كان الشعـر بها غثاً بارداً.

وإليك أقرب مثال أذكره الآنَ من هذا القبيل: قول الإمام بامخرمة:

يا طفيل الظبا هل لي وهل فيك حيلهْ ... هل ترىٰ لي علىٰ قنصك معين أو وسيلهْ
احكِ لي يالذي عرض عليّ في المسيلهْ ... إنّك أشعلت في قلبي وكبدي فتيلهْ
خَذْتَني خَذْتني بالسيف ما هي دغيلهْ ... غير والطبل ينقح والخلايق مضيلهْ

إلىٰ آخر ما قال.

وهو شعر يهزّ أوتار القلوب كما يقولون، ويبعث ما كمُنَ عندك من الأشجان إن كان لديك منها شيء، وسيتضح لك الكثير من تأثيره إذا طبَّقْته علىٰ من صاد قلبك وفتن لبَّك، وتيَّمَتْك أعطافه، وجنّنتك أردافه، وجرّعك كؤوساً من علقم صدوده، أو نالك القضاء بنوازل من بعاده، فإنّك وأنت تنشد هذه الأبيات الدَّارجة تتذوق ما بها من حلاوة وطلاوة، وتعلم أنَّ من الشعر ما يكفيك مؤنة التفكير في التعبير عما تختلج به عواطفك وتجيش به نفسك.

وهلُمّ بنا الآنَ نكسو هذه المعانيَ الآخذة حُللاً من الشعر الفصيح، لنرىٰ أيبقىٰ لها رونقها وزهوها الذي عرفناه لها في الشِّعر الدَّارج، أم تبدو لنا صورة جافة سمجة، لا تستفزّ صبّاً، ولا تحرك أريحية، فتقول:

طفيلَ الظِّباء هل ترىٰ فيك حيلةٌ؟ وهل لي مُعينٌ في اصطيادِك أو نهجُ؟
وقلْ لي بمجرىٰ الماء ماذا أصابني؟ فقد هِجْتَ في جوْفي سِراجاً له وهْجُ
سفكتَ دَمِي بالسيفِ والطبلُ ضاربٌ علـيَّ جهـاراً والأنـامُ لهُـمْ عَـجُّ

ما هذا نعوذُ باللّه؟ نعوذ باللّه من الحَوْر بعد الكَوْر، ومن التدلي بعد الترقي، فقد برز الظبي الغرير في جلد (الـ..) أجلك اللّه عن ذكره، ونسأل اللّه حسن الختام آمين.



❊ ❊ ❊

# الشِّعْرُ ٱلدَّارِج[١]

## (٣)

والنـاسُ سواسية في الإحساسـات الـداخليّـة والانفعـالات النفسيّـة، فالصفـاتُ العامّة الأساسيّة يشترك فيهـا جميع أفـراد الجنس البشـري، فلذة الوصال وألم الصدود، وحرقة الفراق ولوعة البعاد، ولذعة الجوىٰ، وروعة الجمال وغير ذلك، أمور يحسنها ويتأثر بها كل من لامسته تأثراً من نوع واحد، لا فـرق في ذلك بين الكاتـب والأمـي، والعالـم والجاهل، والشاعـر وغير الشاعر.

بيـد أنَّ تصوير ما تختلج به النفـوس، وتتألم منه الضمائر، وتنشرح به الخواطـر، ليس ميسوراً لكـل أحد، وغيـر متاح إلاّ لأولئك المطبوعين من الشعراء الذين يعصِرون من أريحياتِ الحياة وآلامها ومسرّاتها وأحزانها راحاً صافيةَ المزاج، فيديرونها كؤوساً علىٰ النّاس، حيث يتذوقون فيها نُسخاً طبْقَ الأصل من مختلجات نفوسهم ودخائل أحاسيسهم، فيثير ذلك ما كَمُن عندهم من ذكريـات مؤلمة أو مفرحـة، إثارةً تستهوي عليهم مشاعرَهم، وتجعلُهـم سُكارىٰ وما هُم بسُكارىٰ، فيهزّون رؤوسهم، ويصفّقـون بأكُفِّهم، ويقذفون

---

(١) مجلة «الإخاء»، العدد الخامس، السنة الأولىٰ، (ص: ٣٤).

عِرْض الشاعـر المسكين بكلمات قاذعةٍ يُقصَـد بها مدحُه والثناءُ عليه، فمن قائل: قاتله اللّه! إنّه لخبيث، أو آخر: تاللّه إنّه لشيطان! وآخر: يا له من قليلِ دين، وآخر: هذا إبليسُ مجسَّمٌ.. إلىٰ غير ذلك منَ الأقوال التي تُنبىء عن انفعالات عظيمة وإعجاب كبير.

**المعنويّ والحسّيّ:**

وهذا الشِّعر السامي، الذي يسمو بالأرواح ويطير بالنفوس، ليس هو الشعرَ الحسيَّ الذي لا نتحدث في غزله إلاّ عن الصور الجسمانيّة المحسوسة، فيجعـل المرأة ــ مثلاً ــ شكلاً هندسيّـاً يصبـو إليه النظرُ ويستحلِيه الذوق، فيصـف فيها القد واعتداله، والرأس واستدارتـه، والفرح وتجعيده، والخد وتورُّده، والطرْف وحوَرَه، والأنف ودِقّته، والثغر ونصاعته، والجِيْدَ وطوله، والنهد وتذبذُبه، والصّدر واتساعه، والخصر وضمره، والرِّدف وترجرُجه، إلىٰ غير ذلك من تفاصيل الجسم وتقاطينه.

* * *

والشِّعْر الدَّارج، ولا سيما في الأغاني الشعبيّة، له حظّه الأوفر من الغزل الحسّي، وله فيه مواقف شتّىٰ كثيراً ما تزلِقُ فيه أقدامُ أصحابه، لأنّه لبُعده عن الشاعريّة النفسيّة الناطقة عن الإحساسات، والعواطف العامّة التي يشترك فيها جميع أفراد الجنس البشري كما ذكرنا في أوّل المقال، ولأنه، وهو شاعريّة جسمانيّة لا تنطق إلاّ عن ذوق خاصّ ونظر محدود، فإنّه قد يتذوّقه الشاعر وَحْدَه، ويقلده فيه أشخاص ديْدَنُهم التقليد وهِجّيراهم التحزُّب، ولكن لا بد أن تستسمجه أذواقُ قوم آخرين، وتتهرع منه نفوسهم، وتغثىٰ منهم بواطنهم، وإن مَن يسمع قول الشاعر الفصيح:

إن تــزُرْنــي حبيبتــي  وهْيَ كالبدرِ، إذْ بدا

يـدخُـلُ اليـومَ بعضُهـا ثـــمَّ أردافُهـــا غـــدا

يتذكرُ في حينه ذلك الشخصَ الخرافي (عوج بن عنق)، ويعلم أنَّ منَ النّاس من يصبو إلىٰ مثله في الضخامة، أو مثل (الدابة) التي تخرج للناس آخر الزمان وتكلمهم، كما ذكر ذلك بعضُ المفسرين، وسترىٰ الجمهور عند قراءة البيتين يحمَدون اللّه تعالىٰ إذا لم تكُ هذه الحبيبة المهولة لها وجودٌ إلاّ في مخيلة صاحبنا، وإلاّ فإنَّها لو برزت إلىٰ الخارج يوماً لكانت بُعبُعاً لا يطاق، تقشعرّ من رؤيته الجلود، وتقفّ منه الشعور.

وهذا الإغراق أو الغلوّ، وإن كان هو أصلَ العيب الذي حمل النفوس علىٰ الاشمئـزاز من هذين البيتين، إلاّ أنَّ جيـلاً كبيراً من النّاس لا يَهيمُ إلاّ بالأهيف النحيل، ويصرف مشمئزاً عن الضخم الجثة والمتتقي [كذا] شحماً، قال شاعرهم:

لا أعشقُ الأبيضَ المنفوخَ مِن سِمَنٍ لكننـي أعشـقُ السُّمْـرَ المِهَـازيـلا
أنا امرؤٌ أركَبُ المُهرَ المضمَّر في يومِ الرِّهانِ، فدَعْني واركَبِ الفيلا

والأذواق متباينة، والأمزجة مختلفة، ولا مُشاحَّةَ في شيء من ذلك، والمقصـود من سياقنا هذا: هو أن الشاعريّـة المعنويّـة يظهر أثرها في عموم الأرواح والنفوس، بخلاف الشاعريّة الحسيّة، فإنَّ مفعولها ينحصر في الذين تذهب بهم أذواقهم ومألوفاتُهم ذوق الشاعر ومألوفِه.

***

والآن؛ إليك من الشعر الدارج أبياتاً من النّوع الأوّل، وأخرىٰ من النّوع الثاني، بمثابةِ نماذجَ يتضح لك منها الفرق بين من يخاطب الوجدان، وينبّه العواطـف، ويثير الأشجان، ويبسـط الأسارير، وبين من يصف الأجسام، وينحت بخياله الصور.

فمن الأوّل: قول السيّد ابن شهاب العلويّ:

قال[1] المتيم بن شهاب الفَهِيمْ ... أبـو علـي حَـامِـي عـذورَهْ
غزْلان في سُوح المدينة تريمْ ... يقْطِفْـن مـن قلبـي زُهُـورَهْ
يرتعْنَ من عيديد لا دالْ ميمْ ... وقـت المسَـرَّه والمَسُـورَهْ
حلَّينْ في سفْح النِّعَير الوَسِيم ... علـىٰ مَجَـاري المـا قصُـورَهْ
مثل الظِّبا لي في فَلاَها تهِيمْ ... يعبُـرن جـورَهْ بعْـد جـورَهْ
حيّـا ليـالـي ودهـن القـديـم ... وحـيّ هـاتيـك المجـورَه
في الجانب النجدي حبيبي مقيم ... يـا حبّـذا النِّجْـدِي وحـورَهْ
يشرف علىٰ بستان تنغم نغيم ... بـأوصـاف محبـوبـي طيـورَهْ
يا بهجة الخاطر وأنس النديم ... مضنـاك فـوَّضْ تـدامـورَهْ
كن يا المختم بالمتيم رحيم ... شمـس الشهـابـي فـي حجـورَهْ
إذا ذكـر ممـرك جنـح العتيـم ... مـدامعـه تمحـي سطـورَهْ
واللّه ما الغصن الرطيب القويم ... إلاّ قـوامـه فـي خظـورَهْ
خرعوب في الزينات ما له قسيم ... وتستعيـر الشمـس نـورَهْ
القلب في وادي المحبة يهيم ... والجسـم بيـن النـاس صـورَهْ
بـاهـت بـه الغنـا جنـان النعيـم ... حتّـىٰ سخـط رضـوان جـورَهْ
لك تسعة أعشار الحلىٰ يا الرحيم ... والغيـد تتقـاسـم عشـورَهْ
سلك الرضىٰ عني بقلب سليم ... يجْبُـر مـن الخـاطـر كسـورَهْ
إنَّ الإشـارة كـافيـهْ للحَليـم ... شُـفْ فـرحـة الصـايـمْ فُطُـورَهْ

* * *

(١) تتداول هذه القصيدة علىٰ صور كثيرة، ولعلها لا يوجد لها أصل مضبوط. «الإخاء».

ماذا رأيت أيّها القارىء حفظك اللّهُ وأمتعك بأذواقك، ولا أزعجتك لواعج أشواقك؟ أمّا نحن فلا يسعنا إلاّ أن نكل الجواب إليك عمّا أحسست به عند إنشاد هذه الأبيات من بارقةٍ لمحتَها أو مُدامة اصطلحتَها، أو أشجان كامنة قدحتها، أو سرّ من أسرار الحياة اطلعت عليه، أو مشهد من مشاهد الجمال تمتعت به، أو منهل من مناهل البهجة كرَعْت منه، وما إخالُك إلاّ قضيت منه لبانةً طالما تعرضت لقضائها فضَنَّنت به الظروف، وآمنت بأنّ من الشعر ما هو أمضىٰ في النفس من بواتر السيوف.

وبمناسبة ذكر الغزلان في هذه الأبيات؛ نشير إلىٰ ظاهرة جديدة هي من الغرابة بمكان في الشعر الدَّارج الحضرمي، كُلِفَ بها شعراؤه في الوقت الحاضر كَلَفاً لا يُدرَك كُنْهُه، والذي نعده قبل بزوغ هذه الظاهرة: أنَّ الغزلان هي الكناية المألوفة عن «ربّات الحِجَال، وصاحبات الجمال» وهي التي درج عليها النّاس في شعرهم: الفصيح والدَّارج، ولا ريب أنَّ الشبه بين الغزلان والمِلاح متجهٌ اتجاهاً سائغاً بجامع الرشاقة، وحسن الجيد، ودعَج العيون، ووداعتها، والطهارة في كلّ.

أمّا الكناية عن الغواني المِلاَح «بالميازر»، كما فُتن بذلك العصريون الحضارمة في شعرهم الدَّارج، فهي كناية (ثقيلة روح) لا يدري ذوو الذوق السليم لذلك معنىٰ، ولا يدركون وجه الشبه في ذلك، ولعل لأولئك الشعراء متَّجَهاً لم يفسَّر بعد.

والذي يظهر لنا: أنَّ في تشبيه الأوانس بالميازر سرّاً لا يدركه إلاّ أولئك الذين يشبّهون الأرداف بالسفائن الماخرة.

* * *

وأمّا النوع الثاني، وهو الغزل الحسي الذي يهتم صاحبه بأعضاء البدن عضواً عضواً؛ فمنه قول يحيىٰ عمر من قصيدة مطلعها:

يحيىٰ عمر قال: ها حبيبي انتكش ... مسرور فرحان ما جاه الغشوش

إلىٰ أن قال:

يكسيك جعده إذا زاد انتغش ... والخشم خنجر سلب شاجع يقوش
وأعيان به حمر ما جاهن دَمَشْ ... إذا لَحَظْ قرَّب الما والنعوش
وكعوب من مسّهن يغدي طِيَشْ ... والصدر ميدَان للضُمَّر يجُوش
والخَصْر ضامر كما خَصْر الحَنَشْ ... ما يوكل القوت من حمير الوحوش
والعجِزْ مركَبْ وصل شاحن قَمَشْ ... من البراكيل والبَفْت القطوش
بوسبعة أدقالْ سُكَّانُه بوَشْ ... خرج من الرُّوم يبغي أرض الجيوش

إلىٰ آخر ما قال.



❊ ❊ ❊

# بيْنَ اللُّغةِ الفُصْحىٰ والدَّارجة[١]

لسنا ممّن يغُرُّه الحديث بجِدّتِه، ولا التمويه بزِبْرِجِه، ولا نحن ممّن يجمد علىٰ القديم لمجرّد تقليده، ولكنا نقف عند منتصف الطريق بحكم المعدلة، نزولاً علىٰ قول أبي العباس المبرد: «ليس لِقِدم العهد يُفضَّل القائل، ولا لِحدْثانِه يُهتضَم المصيب، ولكن يعطىٰ كلٌّ ما يستحق».

وللّه در أبي تمام حيث يقول:

ولو كان يَفْنى الشعرُ أفناهُ ما قَرَتْ ... حِيَاضُكَ منهُ في العصورِ الذَّواهبِ

ولكنه صوْبُ العقول إذا انجَلتْ ... سحائبُ منهُ أُعقِبتْ بسحائبِ

وقال شاعرُ المَعرّة:

وإني وإن كنتُ الأخيرَ زمانَهُ ... لآتٍ بما لم تستطعْهُ الأوائلُ

غير أنّا ندعُ التطفل على حدود البلاغة، وفرْقِ ما بينَ مطبوع الشعر ومسموعه، إلىٰ ما قرره فيه علماء البيان، إذ لم يدَعوا شاذّة ولا فاذةً من أغراض الكلام وتصاريف القول إلا وفَوْها فوقَ ما تستحق من التفصيل، وأعطوها أكثر مما تحتاجه من البيان؛ فنحن في تحرُّشنا به كمن يحاول أن يدفع باباً مفتوحاً من نفسه علىٰ مصراعيه، وربّما كانت النتيجة من تلك المحاولة

---

(١) هذا المقال ليس للأستاذ محمد بن هاشم، ولكنه رد على مقالاته «الشعر الدارج» لكاتب لم يفصح عن اسمه، نشر في مجلة «الإخاء»، العدد الثاني، (ص: ١١).

ـ علىٰ نزور المادة ـ الاستغلاق.

وإذا كان لا بدَّ لنا من التحدث في الموضوع إلىٰ قراء «الإخاء» فلا علىٰ جهة التحقيق، وإنما علىٰ سبيل المفاكهة والمذاكرة، فنقول: إننا لا نفهم من البلاغة في الشعر إلا ما كان ممّن أتقَنَ الفنّ مع ثقوب الفهم وصفاء الذهن، فأفصَحَ به عما في ضميره وأعرب عما استكَنَّ بين جوانحِه، ومشىٰ بسوق الطبيعة، وتأثر بما يرسم الوِجدان، وتَسَمَّتَ بما يُناجيهِ به الذوق. وللّه درُّ أبي الطيب في قوله:

أفضلُ ما يُطلبُ النجاحُ بهِ الطبْعُ وعندَ التعمُّقِ الزّلَلُ

ولقد كان الخليفةُ الثاني رضوانُ اللّه عنه يحكم فيفضلُ زهيراً علىٰ سائر الشعراء في [1]؛ لأنه لا يُعضِلُ الكلامَ ولا يمدح أحداً إلا بما فيه، وهو القائل:

وإنّ أصدقَ بيت أنت قائلُهُ بيتٌ يقال إذا أنشَدْتَهُ صدقا

وهذا هو الأسعد بالأدلةِ من كلامَيْنِ يتوسعُ في بحوثِهما أهل البيان.

ثم لا يخلو الشعرُ أن يكون حكمياً أو حُمينياً «دارجاً» في لفظ يناسبه أولاً؛ فهي إذاً أقسامٌ أربعةٌ تتفاوت درجاتُها، وأعلاها ما يتسَقَّطُه الشاعر الضَّليع مِن وحي الإلهام، فيصبُّه في شيء من «قوالب الشعر الخليلية» بلفظ فصيح يناسبه، ويطابق أحواله من كل ناحية، فتلك الغاية المقصودة في الباب لكفالتها بطول الخلود وجمال الشارة، وحسن الديباجةِ، ونصاعة الأسلوب، ولصلاحيتها للبعيد والقريب، والقديم والحديث.

وأدنىٰ منه بكثير: أن يُفرغَه بتلك الأوصاف في الشعر الحميني

---

(١) بياض في أصل المجلة بمقدار كلمة.

«الدارج»؛ لأنه وإن حصل له تأثير الأول في هز القلوب، وانبعاث النفوس وتحريك العواطف، إلا أنه لا يبرح ضمن دائرة محدودة تلتقي أطرافها علىٰ الشعب الحضرمي في مهاجِره ووطنِه فقط.

ألا ترىٰ ما للشعر العامي المصري بين أهله من اللذة، فهل ترانا نطرب له أو نصغي إليه؟ كلا! ولو من لسان «أم كلثوم» بين أجود التوقيعات، علىٰ أشجىٰ الآلات. إذن؛ فتوهمُ أكثرية الشعر الحميني في التأثر على الحكمي من أفحش الأخطاء، وأفحش منه توهمُ اتساع اللغة العامية للمعاني والإفصاح عن خَلَجات القلوب وهواجس الضمائر ما تتسع له العربية الفصحىٰ.

وأنىٰ يكون ذلك والأُولىٰ نزِرة الموادّ محدودة الأطراف، والأخرى ــ بما فيها من المترادفات والاستعارات والكنايات والمجاز ــ الفضاءُ الواسع الذي تترامىٰ فيه الأفكار إلىٰ حيثما توجد لغة القرآن؟

فإن أنت امتهنْتَ ما فيها بنقله إلىٰ العامية حيث تقرضُ الحميني، فاعلم أنْ قد ركّبت رأسَ المُهر علىٰ جسم الحمار! فلا برهان لدعوىٰ تيسُّر الإبانةِ عما في الخواطر «باللغة الدارجة» بين العامة وأكثر منه باللغة الفصحىٰ، وإنما يرجع الأمر إلىٰ اختلاف الأشخاص، وقد قالوا: إن بديهةَ الفحل ربما تربو علىٰ رَوِيّته، وإنّ شِعرَهُ ــ بعويص الأعاريض والقوافي ــ قد يجزُلُ ما لا يجزُلُ مع سهلها، وما هو إلا لأنه في العويص تنحصر له المواد، فيقترب منه، بخلافه في السهل، فإنها تتفرق عليه الألفاظ فيحتار بين أحاسنها كما تفرّقتِ الظباءُ علىٰ خراش، ولا يُقال لمثله من اللغة العامية إذ قللنا من أمر مادتها، لأننا إنما نتكلم عن الفحول، والفصحىٰ بيت قصيدهم.

وانظر لحال طرفة بن العبد ومرّة بن محكان السعدي وهدبة بن الخشرم العذري وتميم بن جميل، فقد نطقوا تحت بارقة السيوف بأشعار لو روى فيها المروّون وهذّبها المهذبون لما كان نصيبهم ــ بالنسبة إلى

نصاعتها ــ غير الخذلان، وإذا لم يغُضَّ من أعنّتِهم ضيق المجال فأوْلىٰ أن لا يقصّر من ذرعهم ما دونه.

ومنه يتبين لك ضلال المفتونين بالجديد، إذ ينتقدون التقيّد بالقوافي، ويتمردون علىٰ الأوضاع الشعرية، ويزعمون أنها تُضيِّق علىٰ الشاعر مجال القول، وما أُتوا إلا من قبيل أنفسهم، ونضوب موادهم، وقصور أفكارهم، وكان الأولىٰ بهم أن يُربعوا علىٰ ضلعهم ويقفوا عند حدهم، «وإنما يصلُحُ النِّطاحُ بذات القرون». وللّه در عمرو بن معد يكرب في قوله:

إذا لم تستطع شيئاً فدعْهُ ... وجاوزْه إلىٰ ما تستطيعُ

وإلاّ ففحولُ الشعراء لا يهمهم شيء مما يسميه هؤلاء التضييق، بل ربما التزموا ما لا يلزمهم، فلم تزدَدْ شاعريتُهم إلا مضاءً، وأفكارهم إلا قوة وتأييداً حسب ما قدمناه، وكما كان ابن الرومي يفعله في أكثر شعره اقتداراً وتفوقاً.

دللنا علىٰ أقلية الحميني عن الحكمي في التأثير وانفعال النفوس، ولئن فرض العكس في الأزمنة المتأخرة فلا لفضيلته في ذاته؛ ولكن لسقوط الناس صاروا لا يتأثرون إلا بما يناسب طبائعهم من مرذول الشعر وساقطه «للتين قومٌ وللجميز أقوامُ».

وقد اعتذر بشارٌ عن قوله:

ربابةُ ربةُ البيتِ ... تصبُّ الخلَّ في الزيتِ

لها عشرُ دجاجاتٍ ... وديكٌ حسَنُ الصوتِ

معَ كلامه في الشورىٰ، ومع قوله:

إذا ما غصبنا غضْبة مضَريةً ... هتكنا حجابَ الشمس أو قطرَتْ دَمَا

وأجاب بما معناه: أن ربابةَ لا يسرُّها إلا ذلك، ومرضاتُها ضرورية لديه.

علىٰ أن التأثر بالشعر ــ مهما كان ــ آخذ في التأخر مع سير الزمان في

الأخـلاق بالفساد، حتىٰ كاد الآن يتلاشىٰ أو قد تلاشىٰ بالكلية، ولله درُّ أبي عبادة في قوله:

لم يبقَ من جُـلِّ هـذا الناس باقيـةٌ ... ينـالهـا الفهـمُ إلاّ هـذه الصـورُ
إذا محـاسنـيَ الـلاتـي أُدلُّ بهـا ... صارت ذنوباً فقل لي كيف أعتذرُ
أهُـزُّ بـالشعـر أقـوامـاً ذوي وسَـنٍ ... في الجهلِ لو ضُربوا بالسيف ما شعروا
عليَّ نحـتُ القـوافي مِن مقـاطعِهـا ... ومـا علـيَّ لهـم أن تفهَـمَ البقـرُ

وإلا فقد كان الشعر في الاعتبار الأول.

وحسبُك أنه صلىٰ الله عليه وآله وسلم تأثر بشعر قتيلةَ بنت النضر حتىٰ بكىٰ وتمنىٰ أنْ لو كان النضر حيّاً فوهبَه شعرَها، وبقصيدة كعب حتىٰ حقَنَ دمَه وأكرمـه، وبأبيـات ابن مرداسٍ الثلاثـة حتـىٰ زاد في عطائه أربعين ناقة، وأن الحارث الغسانـي قبِلَ شفاعة علقمةَ الفحل في أسرىٰ تميم، فأطلقهم بأسرهم لشعره، وأن تميمَ بن مُـرةَ أطلـق مَن في جيشِـه كلَّ من كـان اسمه (خُنَيسَ) أو (حُبَيش)، لأربعةِ أبيات استعطفه بها الفرزدق، وماذا فعل السفاح عندما هيّجه سَديفٌ بتلك الأبيات، وماذا كان من عبد الله بن علي لمـا أثاره شبلُ بن معبد بقصيدتـه السينية في كثير من أمثالها لا تدخل تحت الحصـر ولا ينتهي إليها الاستقصاء.

وإنا لنعرف حوادثَ غير قليلة من التأثر بالحميني، إلا أنه الظَّلُّ في جنب الوابل، والعشراتُ في جنب المئات أو الألوف، ولا تجاوز في الأغلب تلك الطبقاتِ التي قد علمت ما يوافق مشاربَها من الأشعار التافهة.

ولا ينكر أحد أنّ شيخ الصناعة ومقدَّم الجماعة في بلادنا هو المرحومُ السيد أبو بكر بن شهاب، وأنه ممّن قُسم له بالحظ الأوفر من النوعين، ومن أسير حمينياته القصيدة التي مطلعها:

«رب يا مالك الأملاك من غير تفريط»

فهل تراهـا مع عذوبتهـا ومائية أسلوبهـا توازي بيتـاً واحداً من قصيدته المستهلة بقوله:

بشراكَ هذا منارُ الحي ترمُقُهُ . . . . . .

**خلاصة:**

وخلاصةُ ما تقدم؛ أن الشعر الحكمي هو الذي ينطلق عليه الاسم، وهو الذي تتفاوت به الطبقات، وهو الذي يهز الشعور ويحفز القلوب إذا أصاب المحل وطبق المفصل من غير اهتضام للآخر ولا إنكار لمزاياه المحصورة.

والعربية الفصحىٰ هي التي يمكن أن يستفرغ الناطق بها ما بين زوايا قلبه وخزائن تفكيره من مخبآت الحكمة وأسرار المواهب، وأنها الصلة الوحيدة بين الناطقيـن بالضـاد في متنائياتِ النواحي والأطراف، إذ لولاها لانفرد كلٌّ بلغته، ولصارت لغة كل ناحية رطانةً بالنسبة إلىٰ غيرها من الجهات.

وإن نحن لم ننهضْ لصد هذه الهجمات عليها من أنصار اللغة العامية، واللغة الصحافية، واللغة المزيجة بالأساليب الأجنبية، لم نأمن أن نطالب بنقل القرآن الحكيم إلىٰ شيء منها! كما أننا لم نتخلص بعد من المطالبة بترجمته إلىٰ اللغات الأجنبية ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم.

# هيئتُنا الاجتماعيّة[١]

الـذي يقرأ هذا العُنوان قد يتبـادر إلىٰ ذهنـه نعيُ الكاتب علىٰ الموقف الحاضر خِلالاً في الهيئة الاجتماعيّة؛ لا تلائم المجتمع ولا تؤدي بالمصالح الوطنيّة إلىٰ خير.

والذي يقرأ هذا العنوان ثم يختلج بخَلَدِه هذا الظن، إنَّما ذاك لما هو معهـود من كُتّابنـا في الصحـف من حصـر كتاباتهـم في الانتقـادات اللاذعـة والتفنيدات المُرّة، والتفنّن في تقبيح الحسن، وتشويه النزيه، كأنما هم أخذوا علىٰ أقلامهم أن لا تخوض إلاّ في حَمْأةٍ من العيوب والمساوىء، ولا تسطر إلاّ علىٰ كاغدٍ من العلل والأمراض، ولا تُصَدّ إلاّ بنياح من التذمر والشكوىٰ.

كلّ هذا لعلـه لإتحاف القراء بغرائـب من الآراء في تشخيص أدْواء قد تكون وقد لا تكون، أو كأنهم قد بصُروا بدقائـق خفيّة من المعايب عمي عنها المنطـق، وعشَـوْا عن محاسنَ جليلة يشملهـا المجتمع الماثل أمامهم، فلم ينظروا إليها بطَرْف، ولا أشاروا إليها بحَرْف؛ وهي أحرىٰ بأن يحرِّضوا الشعب علىٰ المحافظة عليها والتمسك بها، من أن يعْرِضوا أمامه صوراً من الهَيئاتِ قد يخلقُها خيال الكاتب وحدَه، وربَّما كانت من لوازم المجتمع، ومن الظروف

---

(١) مجلة «الإخـاء»، العدد الثاني، السنة الأولىٰ، جمادىٰ الآخرة ورجب ١٣٥٧هـ، العددان: ٦، ٧.

القاهـرة التي لا ينفكّ عنها المحيـط، ولا تتخلّىٰ عنهـا البيئة، ولا يكفي في زحزحتها دندنة مُدندِن، ولا رِيْقَةُ يراعة.

* * *

وإن لدينا نحن ــ الحضارمةَ ــ كنوزاً من الآداب القوميّة والإسلاميّة، ولدينـا مقومات من الشيم العربيّة والشرقيّة، هي: مكارم أخلاق، ومحاسن خلالٍ، بها نمتاز عن غيرنا في حاضرنا، كما قد امتاز بها سلفنا في ماضينا، وإذا لم تكُ هذه المكارم والآداب موروثةً عند الشعوب الأخرىٰ التي بهَرَتْنا بعلومها الماديّة؛ فليس معناه هَجَانةَ تلك المكارم، وسماجةَ تلك الآداب، وإنما هي آدابٌ وتقاليدُ: قوميّة أو دينيّة، قد لا يكون بينها وبين العلوم الطبيعيّة والماديّة أقلُّ صلةٍ مّا.

وإذا مَجَّتْ أذواقُ الغربيين مثلاً تقاليدَنا نحن ــ العربَ ــ ومقوماتِنا، فما عسىٰ أن نفعل؟ أرَىٰ أننا نفعـلُ كلَّ شيء ولا ننسلـخ من قوميتنا إرضاء لتلك الأذواق المزكومة، ومن ذا الذي ينتحي الخلطَ بين الآداب الموروثة، والتقدُّم العلمي، إلا مَن أبعد في البلاهة وأغرق في الحماقة؟

وإلاّ فمـا الذي أدخَـلَ مثـلاً: توقيـر الكبير، ورحمـة الصغير، وإكرام الضيـف، واكتسـاء العمامـة، وارتداء الجُبّـة، واحتجاب المرأة، واشتمال الملاءة؛ فما الذي أدخل شيئاً من هذا في نسْبِية «آينشتين»، وجاذبية «نيوتن»، وأسرار «الكربون»، ودقائـق الأشعة، وأمواج الأثير؟ وغير ذلك من لطائف المعارف وغرائب الطبيعة، التي حيّرت الألباب، وأدهشت الأفكار، وفرضَت علىٰ الكثيرين من شُبّـان الشرقيين وأغرارهـم تأليـه الغـرب وتقديس عاداته وتقاليده، وجِدّه وهزله، وتنسكه وخلاعته؟

* * *

نحن نقر ونعترف باستهواء القوي الضعيفَ، وتأثيره عليه تأثيراً يسلُب عنه تعقُّلَه، ويفتقد عليه توازنه، ويدفعه ــ باختيار وبغير اختيار ــ إلىٰ مضائق وعرة توصله إلىٰ هوة سحيقة، لا يَرُوعه فيها إلاّ تدهور كيانه، وانمحاق ذاته، وتلاشيه تلاشياً يُدخله في خبر «كان».

ولهذا نرىٰ نحن ــ الحضارمةَ ــ أنّه مع ضعفنا المتناهي تُجاه هذه القوة الغربية التي رجَّت هذا الكوكب الأرضي رجّاً، فإنّنا نُعربد علىٰ حَمَلة الأقلام منا أن يخلُقوا بأقلامهم في نفوس شبابنا إراداتٍ جبارةً، تقاوم بجبروتها هذا التيار الغربي الجارف، حتّىٰ لا يطغىٰ علىٰ مقوماتها، ولا يزحزحَها عن كيانها.

ونظرةٌ واحدة، ولو عَجْلىٰ في هيئتنا الاجتماعية نحن ــ الحضارمة ــ تنبىء الناظر بأننا ــ والحمد للّه ــ لا نزال اليوم علىٰ قسطٍ لا بأس به من العروبة التي يتَبجَّحُ بها بنو الضاد في مشارق الأرض ومغاربها، وما تلك العروبةُ إلاّ اللغةُ، ومكارم الخِلاَل، والعاداتُ الموروثة عن أسلافنا الغابرين.

ولعمري، لئن وُجدت النواجذ للعضِّ علىٰ شيءٍ مّا، فإن أقدَرَ ما تعضُّ عليه النواجذُ هي: تلك التقاليد القوميّة التي تبقي لنا حضرميَّتنا وعروبتنا، والتي لا يستنكرها شرع ولا عقلٌ ولا ذوق، ولا يأنفُ منها اليوم، إلاّ من تغلّب علىٰ دماغه خوَرُ الانهزام من صفّ القوميّة إلىٰ خير المتفرنجين، الذين يحسبون الرقيَّ العصري محصوراً في أزياء الغربيين وتقاليدهم.

***

وإنني أكاد أجزم بأنّ في قُرّاء هذه السطور مَن يحرق الأرْمَ عليَّ غيظاً وحَنَقاً مما أُمليهِ الآن عليه من هذا المقال «البارد» في نظره؛ وأنا لا أُشَاحُّه في نظره، ولا أتذمّر من اعتقاده فيّ: بأنني كاتب رجْعيّ، أصدُّ النّاس عن التقدّمِ

والصعود إلىٰ قمم الثقافة والعصريّة.

وأنا لا يسعني حِيالَ هذا إلاّ أن أبْحثَ عن رُقْيةٍ أَرْقي هذا المسكينَ المصروع بالهستيريا، والمصاب بجنون التفرنُج، والمضروب علىٰ سمعه وبصَره حتّىٰ أصبح لا يسمع ولا يرىٰ إلاّ الغربَ وحده لا شريك له.

من لي بأنْ يعلَمَ هذا المفتونُ بالغرب وعاداته، أنَّ المحافظة علىٰ القوميّة وتقاليدها هي الشعار والدِّثار للغرب، الذي يُخفي وراء تبسماته الساحرة مسالخَ يَسلخ بها جلود المعتوهين من أبناء الشرق، الشاغرين بأفواههم إلىٰ مسالخهم، توقعاً أن يكسوهم من جلده الأبيض رياشاً يتملكون بها نواحيَ المدنيّة الحاضرة؟

أنا لست برجعي! وإنما الرجعي: من يحاول الرجوع عن قوميته، ويستنقصها من أطرافها بما فيها من آداب ومبادىء إلىٰ قوميّة أناس آخرين، يقتطف منها ما يضر ولا ينفع، ويُهزل ولا يسمن.

والرجعيّ: من ينزع عن مبدإٍ قومي إلىٰ مبدإٍ سخيف يناقضه: علىٰ خطٍّ مستقيم وخط غير مستقيم؛ والرجعيُّ: من عطَفَ ذَيْلَه، وانطلق يُبرطع ثائراً علىٰ تقاليد أمته، ساخطاً من آدابها، رافعاً عَقِيرتَه بالصُّراخ الشائن بدون هَوَادة ولا حَيَاء.

والحضارمة إنما جاء هُبُوبهم لمصافحة المدنية الغربية متأخراً، فوصلوا وقد سبقتهم العناصر العربية إلىٰ التهافت علىٰ ذلك المورد الخطير، ثُم عادت وحقائبُها ملأىٰ بالتجارِب التي اكتسبتها من الاحتكاك بالغرب والغربيين، فلنطالع ما كَتبه عقلاؤها في ذلك، حتّىٰ لا نتورط في مآزِقَ لا نتحصل فيها علىٰ خطٍّ للرجعة، ولا علىٰ إياب نرضىٰ به عن الغنيمة، و«السعيدُ منِ اتّعظ بغيره».

وأنت إذا قرأت شيئاً مما كتبه أولئك الأعلامُ، فهمت منه: أن حياة الأمة لا تبقىٰ لها إلاّ بالمحافظة علىٰ مقوماتها ومميزاتها، وإحياء ما اندرس من تاريخها ومجدها القديم؛ أمّا العلوم العصرية، والمعارِف الغربية، فهي شيءٌ آخرُ يلزم تحصيلُه، من دون أن نرسل الطعَنات الحارة إلىٰ صميم الأمة في آدابها وتقاليدها المقبولة.



# السلطانُ عليُّ بن المنصور[١]
# فذْلكة تاريخية عن حياته



نعيُه:

في أواخر الشهر الماضي تحركت الأمواج الأثيرية متجهة نحو غاياتها، وحاملةً بين طياتها مشؤوماً، فزِعَت له الأوساط الحضرميّة في جميع الأنحاء، وذُعر له من صناديد الحضارمة من لا يتطرق فؤادَه الذعر، ولا تُزعزعه نوائب الدهر.

والرجل العظيم لا يكون نعيُه إلاّ عظيم الوقع علىٰ نفوس مُحبّيه ومُبغضيه معاً، والرجل العظيم تملأ حياتُه فراغاً عظيماً في ألسنة النّاس وعقولهم ومخايلهم، فإذا تزحزح عن مكانه اضطربت اضطراباً عظيماً تلك الألسنةُ وتلك العقول وتلك المخايل، فينشأ عن ذلك دويٌّ يُصمُّ الآذان، تلتقفه بُطون الأوراق فتخلّده بين سطورها للأجيال القابلة، وتلتقطه عدسات الأشعة الكونية فتطبعه علىٰ جنَباتها للقارىء والأميِّ من أبناء المستقبل الكشاف.

والسلطان علي بن المنصور بن غالب من أولئك العظماء الأفذاذ، الذين

---

(١) مجلة «الإخاء»، العدد الثامن، السنة الأولىٰ، شعبان ١٣٥٧هـ، أكتوبر ١٩٣٨م: (ص: ٦ ــ ١٠).

تفوّقت شخصياتهم علىٰ الشخصيات التي ينتجها قطْرُهم عادةً. وبعبارة أجدر: هو من أولئك الذين أُفْرِغوا في قالب أكبر من القوالب التي يفْرِغُ فيها هذا القطر منتجاته المألوفة.

ونحن إنما أوردنا هاتين العبارتين حرصاً علىٰ الفِرار من الإطراء الذي ليس هو من دَيْدنِنا ولا من مرغوباتنا؛ لأننا نتأكد أنَّ الإطراء والغلوّ ومجاوزة الحد في الوصف شيءٌ زائف ليس له لدىٰ أولي الألباب أقلّ قيمة يقدر بهم أن يُضَحوا فيها بمثقال ذرة من أوقاتهم، والمرء إذا لم يكتب للحقيقة فما هي الفائدة له أو لقُرَّائه مما يكتب، سوىٰ تغذية خيالهم بمعانٍ فاسدة كلّها غشٌّ وتدليس، لا تلبث أن تتداعىٰ أسسها وتنهار دعائمها، فلا تصبح شيئاً؟

**أهميةُ حياته:**

والسلطان علي بن المنصور حرِيٌّ بأن يسطّر الكاتبُ له تاريخاً خاصاً، وأن يهتم القارىء بأدوار حياته، فإنَّ المسافة التي قطعها في هذه الدار، من حينَ قدِمَ إليها إلىٰ أن ارتحل عنها، مسافة خِصْبة، عامرة بالجهود التي لا يقومُ بها غيرُ ذوي النفوس الكبيرة، والهمم الساميّة، والتي تصبو لسماعها أذواق المغرمين بالمعلومات التاريخية، وتتعشقها طباعهم، وهكذا تكون حياة العظيم، معْرِضاً قيّماً تنتابه رجال العلم وأبطال الآثار، وتتهافت عليه فنّانو التاريخ وهواة المطالعة.

**أصالةٌ في النبل:**

والرجل متحدِّرٌ من سلالة عريقة في النبل، تليدة في المجد تملكت حضرموت منذ نحو سبعمائة سنة، تضعف أثناؤها تارة وتقوىٰ طوراً، وتموت مرة وتحيا أخرىٰ.

وفي حوالي سنة ١٢٦٢هـ نهض السلطان غالب بن محسن بن أحمد،

الجد الأدنىٰ للفقيد، فأحيا دولة آبائه بعد اضمحلالها، وتولىٰ السلطنة بعده نجله الأكبر: السلطان المنصور بن غالب، وذلك سنة ١٢٨٧ هـ.

**ميلادُ الفقيد:**

وبرز فقيدُنا ــ المغفور له ــ من عالم الخفاء إلىٰ عالم الظهور، أو من عالم الغيب إلىٰ عالم الشهادة، أو من أعماق العدم إلىٰ ضحضاح الوجود، أو بعبارة أخرىٰ: جاءنا من عالم لا نعرفه نحن ولا هو، إلىٰ هذا العالم المملوء بالأسلاك الشائكة. أو نقول فقط: ولد المغفور له ــ ونريح أنفسنا وقُراءنا من هذه المحاولات الكاسدة والعبائر الباردة ــ في أواخر شهر الحجة سنة ١٢٩٩هـ، وتلقَّته كرائم القوابل بأقمِطة العزّ والسِّيادة، أو بسطة المُلك والسلطان، وأخذ يرتضع الشّمَم والأَنَفَة مع الليـن من أفاويق الهمم السامية والنفوس الكبيرة، ناشئاً في حجر أبيه، الذي حصر هَمَّه في الاعتناء به، وبتربيته التربية المنتجة، بجعله رجلَ الدولة في مستقبلها.

**تربيتُه وتعليمُه:**

وكبِرَ صاحبنا وترعرع، فجلب له أبوه معلماً يعلمه القرآن، ويُخرِجُه من ظلمة الأميّة، وكانوا في ذلك العهد ــ ولا يزال بعضهم إلىٰ الآن ــ يجعلون القرآن الكريم موضوعاً لتعليم الحروف؛ وإن القرآن الكريم لأَجَلُّ وأقدس من أن يُجعَلَ محِلاً لتجرِبةِ المبتدئين من الأطفال وميداناً لتصحيح أغلاطهم.

وبعد أن ختم فقيدُنا القرآن، أخذ في طلب مبادىء العلوم المعهودِ طلَبُها إذ ذاك عند مدرسي عصره.

وكان السلطان المنصور قويَّ الشكيمة في التربية الدينية، فكان يلاحظ فقيدَنا علىٰ كل حالٍ من أحوال الدين، وقد أخبرني المغفور له: بأن أباه كان يحتَّمُ عليه وعلىٰ إخوانه أن لا يُصلّوا شيئاً من المفروضة فُرادىٰ، وأن الفقيد

وأحد رفقائه ــ وهو أحمد بن محسن ــ تخلَّفا ذات ليلة عن جماعة العشاء في المسجد الجامع كما هي عادتهم كل ليلة. قال: فلم يأذن لنا الوالد بدخول القصر، ولا تناول العشاء، وكانت ليلة مطيرة شاتئة، فباتا بأشرٍّ ليلة.

ولم يكُ بحضرموت يومئذٍ شهيرٌ من مشاهير السادة العلويين وصلحائهم إلاّ وكان للسلطان المنصور أجلُّ اهتمام باتصال ابنه به، إما للأخذ عنه، أو لاستمداد الدعاء منه، فكان لهذا الاتصال بهؤلاء المشاهير الأعلام أكبرُ أثرٍ في مجرىٰ حياة الفقيه أخلاقيّاً واجتماعيّاً.

وعرَفَ السلطان المنصورُ كيف يغرسُ الفضيلة والرجولية وروح العروبة في نفس الفقيد؛ فقد نشأ رجلاً فاضلاً عربياً نزيهاً عفيفاً، بعيداً عن السفاسف والقاذورات. وكان أبوه يحتِّم عليه في صباه الحضور بمجالس الرجال الواردين عليه، ويستصحبه معه في غدَواته ورَوْحاته غالباً، ويلفت نظره إلىٰ ما يعترضه من مهمات الخِلال، فاكتسب من ذلك عقلاً وفيراً، وحلماً عزيزاً، أفاد بهما بعدُ أمَّتَه ووطَنَه عندما بلغ مبلغ الرجال.

**شبابُه وفتوّتُه:**

بدأ في عنفوان شبابه بمعاشرة أدباء السادة العلويين وحضور مدارسهم ومجالسهم، وسماع مساجَلاتهم الأدبية، ومقارضتهم الشعر، فانجذبت بذلك روحه إلىٰ كتب الأدب والتاريخ، وولع بذلك ولعاً عظيماً؛ فاقتنىٰ المجلّدات الضخمة فيها، وكَلِف بمطالعتها، واستفاد منها علماً جماً، وذوقاً سليماً.

وهو معَ ذلك قائم بخدمة أبيه الخاصة والعامة، ومديراً لشؤون دولته، ويصْدُر مندوباً عنها في مفاوضاتها السياسية، وساهراً علىٰ استتباب الأمن في البلاد، وقطع جذور العبث والفساد، وكان يشجع أباه علىٰ استعمال الصرامة مع بعض الظَّلَمة من العشائر المجاورة، أو المماليك المتمرِّدة؛ الذين تعوَّدوا

الجد الأدنىٰ للفقيد، فأحيا دولة آبائه بعد اضمحلالها، وتولىٰ السلطنة بعده نجله الأكبر: السلطان المنصور بن غالب، وذلك سنة ١٢٨٧هـ.

**ميلادُ الفقيد:**

وبرز فقيدُنا ــ المغفور له ــ من عالم الخفاء إلىٰ عالم الظهور، أو من عالم الغيب إلىٰ عالم الشهادة، أو من أعماق العدم إلىٰ ضحضاح الوجود، أو بعبارة أخرىٰ: جاءنا من عالم لا نعرفه نحن ولا هو، إلىٰ هذا العالم المملوء بالأسلاك الشائكة. أو نقول فقط: ولد المغفور له ــ ونريح أنفسنا وقراءنا من هذه المحاولات الكاسدة والعبائر الباردة ــ في أواخر شهر الحجة سنة ١٢٩٩هـ، وتلقَّته كرائم القوابل بأقمِطة العزّ والسِّيادة، أو بسطة المُلك والسلطان، وأخذ يرتضع الشّمَم والأَنَفَة مع اللين من أفاويق الهمم السامية والنفوس الكبيرة، ناشئاً في حجر أبيه، الذي حصر هَمَّه في الاعتناء به، وبتربيته التربية المنتجة، بجعله رجلَ الدولة في مستقبلها.

**تربيتُه وتعليمُه:**

وكبِرَ صاحبنا وترعرع، فجلب له أبوه معلماً يعلمه القرآن، ويُخرِجُه من ظلمة الأميّة، وكانوا في ذلك العهد ــ ولا يزال بعضهم إلىٰ الآن ــ يجعلون القرآن الكريم موضوعاً لتعليم الحروف؛ وإن القرآن الكريم لأَجَلُّ وأقدس من أن يُجعَلَ محِلاً لتجرِبةِ المبتدئين من الأطفال وميداناً لتصحيح أغلاطهم.

وبعد أن ختم فقيدُنا القرآن، أخذ في طلب مبادىء العلوم المعهودِ طلَبُها إذ ذاك عند مدرسي عصره.

وكان السلطان المنصور قويَّ الشكيمة في التربية الدينية، فكان يلاحظ فقيدَنا علىٰ كل حالٍ من أحوال الدين، وقد أخبرني المغفور له: بأن أباه كان يحتَّمُ عليه وعلىٰ إخوانه أن لا يُصلّوا شيئاً من المفروضة فُرادىٰ، وأن الفقيد

وأحد رفقائه ــ وهو أحمد بن محسن ــ تخلّفا ذات ليلة عن جماعة العشاء في المسجد الجامع كما هي عادتهم كل ليلة. قال: فلم يأذن لنا الوالد بدخول القصر، ولا تناول العشاء، وكانت ليلة مطيرة شاتئة، فباتا بأشرٍّ ليلة.

ولم يكُ بحضرموت يومئذٍ شهيرٌ من مشاهير السادة العلويين وصلحائهم إلاّ وكان للسلطان المنصور أجلُّ اهتمام باتصال ابنه به، إما للأخذ عنه، أو لاستمداد الدعاء منه، فكان لهذا الاتصال بهؤلاء المشاهير الأعلام أكبرُ أثرٍ في مجرىٰ حياة الفقيه أخلاقيّاً واجتماعيّاً.

وعرَفَ السلطان المنصورُ كيف يغرسُ الفضيلة والرجولية وروح العروبة في نفس الفقيد؛ فقد نشأ رجلاً فاضلاً عربياً نزيهاً عفيفاً، بعيداً عن السفاسف والقاذورات. وكان أبوه يحتِّم عليه في صباه الحضور بمجالس الرجال الواردين عليه، ويستصحبه معه في غدَواته ورَوْحاته غالباً، ويلفت نظره إلىٰ ما يعترضه من مهمات الخِلال، فاكتسب من ذلك عقلاً وفيراً، وحلماً عزيزاً، أفاد بهما بعدُ أمَّتَه ووطَنَه عندما بلغ مبلغ الرجال.

**شبابُه وفتوّتُه:**

بدأ في عنفوان شبابه بمعاشرة أدباء السادة العلويين وحضور مدارسهم ومجالسهم، وسماع مساجَلاتهم الأدبية، ومقارضتهم الشعر، فانجذبت بذلك روحه إلىٰ كتب الأدب والتاريخ، وولع بذلك ولعاً عظيماً؛ فاقتنىٰ المجلّدات الضخمة فيها، وكَلِف بمطالعتها، واستفاد منها علماً جماً، وذوقاً سليماً.

وهو معَ ذلك قائم بخدمة أبيه الخاصة والعامة، ومديراً لشؤون دولته، ويصْدُر مندوباً عنها في مفاوضاتها السياسية، وساهراً علىٰ استتباب الأمن في البلاد، وقطع جذور العبث والفساد، وكان يشجع أباه علىٰ استعمال الصرامة مع بعض الظَّلَمة من العشائر المجاورة، أو المماليك المتمرِّدة؛ الذين تعوَّدوا

الجد الأدنىٰ للفقيد، فأحيا دولة آبائه بعد اضمحلالها، وتولىٰ السلطنة بعده نجله الأكبر: السلطان المنصور بن غالب، وذلك سنة ١٢٨٧ هـ.

**ميلادُ الفقيد:**

وبرز فقيدُنا ــ المغفور له ــ من عالم الخفاء إلىٰ عالم الظهور، أو من عالم الغيب إلىٰ عالم الشهادة، أو من أعماق العدم إلىٰ ضحضاح الوجود، أو بعبارة أخرىٰ: جاءنا من عالم لا نعرفه نحن ولا هو، إلىٰ هذا العالم المملوء بالأسلاك الشائكة. أو نقول فقط: ولد المغفور له ــ ونريح أنفسنا وقُراءنا من هذه المحاولات الكاسدة والعبائر الباردة ــ في أواخر شهر الحجة سنة ١٢٩٩هـ، وتلقَّته كرائم القوابل بأقمِطة العزّ والسِّيادة، أو بسطة المُلك والسلطان، وأخذ يرتضع الشّمَم والأَنَفَة مع اللين من أفاويق الهمم السامية والنفوس الكبيرة، ناشئاً في حجر أبيه، الذي حصر هَمَّه في الاعتناء به، وبتربيته التربية المنتجة، بجعله رجلَ الدولة في مستقبلها.

**تربيتُه وتعليمُه:**

وكبِرَ صاحبنا وترعرع، فجلب له أبوه معلماً يعلمه القرآن، ويُخرِجُه من ظلمة الأميّة، وكانوا في ذلك العهد ــ ولا يزال بعضهم إلىٰ الآن ــ يجعلون القرآن الكريم موضوعاً لتعليم الحروف؛ وإن القرآن الكريم لأَجَلُّ وأقدس من أن يُجعَلَ محِلاً لتجرِبةِ المبتدئين من الأطفال وميداناً لتصحيح أغلاطهم.

وبعد أن ختم فقيدُنا القرآن، أخذ في طلب مبادىء العلوم المعهودِ طلَبُها إذ ذاك عند مدرسي عصره.

وكان السلطان المنصور قويَّ الشكيمة في التربية الدينية، فكان يلاحظ فقيدَنا علىٰ كل حالٍ من أحوال الدين، وقد أخبرني المغفور له: بأن أباه كان يحتَّمُ عليه وعلىٰ إخوانه أن لا يُصلّوا شيئاً من المفروضة فُرادىٰ، وأن الفقيد

وأحد رفقائه ــ وهو أحمد بن محسن ــ تخلَّفا ذات ليلة عن جماعة العشاء في المسجد الجامع كما هي عادتهم كل ليلة. قال: فلم يأذن لنا الوالد بدخول القصر، ولا تناول العشاء، وكانت ليلة مطيرة شاتئة، فباتا بأشرٍّ ليلة.

ولم يكُ بحضرموت يومئذٍ شهيرٌ من مشاهير السادة العلويين وصلحائهم إلاّ وكان للسلطان المنصور أجلُّ اهتمام باتصال ابنه به، إما للأخذ عنه، أو لاستمداد الدعاء منه، فكان لهذا الاتصال بهؤلاء المشاهير الأعلام أكبرُ أثرٍ في مجرىٰ حياة الفقيه أخلاقيّاً واجتماعيّاً.

وعرَفَ السلطان المنصورُ كيف يغرسُ الفضيلة والرجولية وروح العروبة في نفس الفقيد؛ فقد نشأ رجلاً فاضلاً عربياً نزيهاً عفيفاً، بعيداً عن السفاسف والقاذورات. وكان أبوه يحتِّم عليه في صباه الحضور بمجالس الرجال الواردين عليه، ويستصحبه معه في غدَواته ورَوْحاته غالباً، ويلفت نظره إلىٰ ما يعترضه من مهمات الخِلال، فاكتسب من ذلك عقلاً وفيراً، وحلماً عزيزاً، أفاد بهما بعدُ أمَّتَه ووطَنَه عندما بلغ مبلغ الرجال.

**شبابُه وفتوّتُه:**

بدأ في عنفوان شبابه بمعاشرة أدباء السادة العلويين وحضور مدارسهم ومجالسهم، وسماع مساجَلاتهم الأدبية، ومقارضتهم الشعر، فانجذبت بذلك روحه إلىٰ كتب الأدب والتاريخ، وولع بذلك ولعاً عظيماً؛ فاقتنىٰ المجلّدات الضخمة فيها، وكَلِف بمطالعتها، واستفاد منها علماً جماً، وذوقاً سليماً.

وهو معَ ذلك قائم بخدمة أبيه الخاصة والعامة، ومديراً لشؤون دولته، ويصْدُر مندوباً عنها في مفاوضاتها السياسية، وساهراً علىٰ استتباب الأمن في البلاد، وقطع جذور العبث والفساد، وكان يشجع أباه علىٰ استعمال الصرامة مع بعض الظَّلَمة من العشائر المجاورة، أو المماليك المتمرِّدة؛ الذين تعوَّدوا

التحكُّك بالدولـة والتحـرش برعاياها، ولم يلاقوا منها إلاّ الضعْف واللين، فيفوِّضُ إليه أبوه الأمر في مثل هذه الظروف، فيرىٰ من بطش الفقيد وتنكيله بالمفسدين ما يثلج فؤاده ويُقِرُّ عينَه.

**توليتُه وإصلاحاتُه:**

ومات السلطـان المنصـور سنـة ١٣٤٧هـ. بعد أن أفضىٰ بولاية عهده للفقيد، فتولىٰ السلطنة وقد درسها ودرستـه، واختبرها واختبرته؛ وقد سلك في سُبُلِها وفجَاجها، وكرَعَ من فُراتها وأُجاجها.

فلـم تـكُ تصلُـحُ إلاّ لـهُ ولم يكُ يصلُحُ إلاّ لها

ثمَّ قبض عليها بإرادة حديدية، وأدار دفّتها بعزم وحكمة، وقام في العشر سنوات التي حَكَمها بإصلاحات عديدة، تنم عن قوة عزيمته، وصدق رغبته في الخير، وبُعد نظره في الشؤون الاجتماعيّة والسياسيّة، وحيثُ أن هذه العجالة غير كافيـةٍ لشرح ما تمّ علىٰ يد هذا المأسـوف عليـه من صغائـر الإصلاحات وكبارها، فإننا لا نرىٰ مانعاً من ذكر بعضها بإيجاز يليق بهذا المقام.

**١ ــ نخيل سيئون:**

وأول ما وجّـه عنايته إلىٰ سلامـة نخيل الرعايا المجاور للمدينة، وكان ذوو الظلـم من العصابـات المتسلحـة لا يفتـأون يعيثـون فيه بما شاءت لهم أهـواؤهم وأطماعهـم؛ فنجح الفقيه في كَبْح جماحهـم أيَّما نجاح، وسُلِّمت الأمـوال الكثيرةُ لأهلهـا، ولم يكتفِ بهذا، بل ضرب علاوةً علىٰ ذلك رسماً للدولة علىٰ نخيل العشائر المغروس بتلك البقاع، وكانوا أرفعَ من أن يدفعوا للدولة رسماً.

**٢ ــ المماليك :**

واهتمَّ ثانياً بمشكلة المماليك الذين كانوا كثيراً ما يتمرَّدون علىٰ الدولة، ويرهقون الرعايا بطلباتهم المجحفة، ولا يتأثمون أن يحتلّوا ديارهم ويشاركوهم في أقواتهم، وربما أطلقوا الرصاص منها علىٰ القصر السلطاني، فلم يلبث الفقيد أن خضَدَ شوكتَهم، وهضم أجنحتهم، وأدخلهم تحت الطاعة بدون شرط ولا قيد.

**٣ ــ سُور سيئون :**

ورأىٰ فقيدُنا حاجَةَ سيئون ــ وقد اتسعت عمارتها وامتد غراس نخيلها ــ إلىٰ سور يُضرَب نطاقُه عليها، فَيحميها من هجمات العصابات الخارجية، وتلاعب اللصوص بالأمن؛ فجرد همته وابتنىٰ عليها سوراً يبلغ محيطه نحو الكيلومترين، يحيط بالمدينة من كل جهة ما عدا الجهةَ الجنوبية، حيث تصُدُّ الجبالُ عنها.

**٤ ــ البعثات :**

ولم يغفُلْ عن التفكير في مستقبل حضرموت العلمي، فارتأىٰ أنَّ بعث البعثات إلىٰ الخارج هو أنجح علاج لنشر المعارف في القطر، فكتب إلىٰ جلالة الملك فاروق ملك مصر، وجلالة الملك غازي ملك العراق، يلتمس من كل منهما أن يَقبل بمدارس حكومته طلاباً حضرميين يرسلهم السلطان علىٰ نظره. وقد أجابه العاهلان بالقبول؛ وتمَّ إرسال البعثة الأولىٰ إلىٰ مصر، وكتب ثانياً إلىٰ مصر يلتمس إرسال بعثة أخرىٰ ولمّا يأته الجوابُ بعد، وفوجيء رحمه الله بالوفاة وبعثة العراق علىٰ أهبة الرحيل، وقد كتب كل ما يلزم لها من توصيات وغيرها.

* * *

## إدارتُه وعمَلُه اليوميّ:

والرجل ذو موهبة عظيمة في حسن إدارته: الخاصة والعامة، وفي خبرته بحَلّ المشاكل، وفي درايته بطبائع النّاس من كل الطبقات، فهو يدير جميع شؤون سلطنته: السياسيّة، والمدنية، والعسكرية علىٰ ما يرام، مُستعيناً بأخيه السلطان الحالي جعفر، ونجله السلطان أحمد.

فكان ينهض باكراً من نومه قبل الفجر بنصف ساعة تقريباً، فيتوضأ ويركع ركعتين، ويطوف في القصر موقظاً للنُوّام، ثم يعود فيركع ركعتي الفجر، وينتظر ريثما يحضر شقيقه السلطان جعفر وغيره من رجال القصر، فيصلون.الصبح جماعة، ثم يذهب كل منهم في سبيله، وينتحي هو ناحيةً حتّىٰ أول شروق الشمس، فيتناول إفطاره من بيض ولبن غالباً، وربما تناول قليلاً من خبز الذرةِ ويدفع خبز البُرِّ لمن حضر.

ثُم يأمر فيؤتىٰ له بحقيبته ويستخرج منها ما ورد إليه من مكاتيب المساء، فيطالعها بإمعانٍ وهو يتناول فنجان «الشاي» من حين إلىٰ آخر، ثُم يحضر الكاتب، فيوعز إليه بالأجوبة.

وينهض نحو الساعة الثانية شتاءً، والساعة الأولىٰ صيفاً، إلىٰ ساحة الحكم، فيجدها غاصّةً بأرباب الدعاوي والشكاوي، وربما برز لهؤلاء في ساقية البلاد، هذا إذا كان هو في مصيفه، فلا تأتي عليه الساعة الرابعة إلاّ وقد فرغ من قضاياهم، وانفضَّ كل ذلك الجمع، فينصرف إلىٰ حيث يشاء من نزهة، أو حضور درس، أو زيارة صديق.

ويعود إلىٰ قصره عند الساعة الخامسة والنصف، حيث يقدم له ولمن بمعيته طعام الغداء، ويغفو بعده إغفاءة خفيفة، ثُم يقوم للوضوء وصلاة الظهر جماعةً، ويذهب نحو الساعة الثامنة والنصف إلىٰ قاعة الحكم ثانيةً، فيجدها

ملأىٰ بالطالبين، فيفصل قضاياهم، ويصلي العصر هناك.

وعند الساعة الحادية عشرة يركب سيارته متنزهاً مع أخيه السلطان جعفر ومن حضر من أصدقائه حتّىٰ المغرب، حيث يعود هو وإياهم إلىٰ القصر، فيصلّون المغرب جماعة، ويحضر رجال العائلة المالكة، فيُمضون الوقت في محادثةٍ ومُسامرةٍ إلىٰ العشاء، فيصلون معه وينصرف كل منهم إلىٰ سبيله، ويتناول السلطان طعام العشاء مع ضيوفه، ثُم يسامرهم بعده قليلاً، ويدخل إلىٰ داره حيث ينام.

**شيمُه وأخلاقُه:**

يرىٰ الدارس لطبيعة السلطان علي وأخلاقه شخصيتين متناقضتين تعتورانه، لا يكاد المرء ــ عندما يرىٰ إحداهما، ثُم يرىٰ الأخرىٰ ــ يصدِّق نفسه أنهما ناحيتان لشخص واحد، فصاحبنا رجل صعب الرأس عنيد الرأي، شديد الإلحاح، وصاحبُنا نفْسُه شخصٌ لين الجانب، سهل الانقياد، وهين الاستشارة، ولهذه المزيّة أصبح مهاباً ومحبوباً لدىٰ شعبه في آن واحد.

ولعلّني مِن أخبَرِ النّاس به وأدْرَسِهم لأخلاقه، فقد صحبته طويلاً، وعرفته في مواقفَ متباينةٍ وحالات متعددة، فرأيت العظمة بمعناها مجلّلة له: من فوقِه إلىٰ أخْمُصَيْه، لا تغادرُهُ في حال من الأحوال، وهو عظيم في حديثه، عظيم في رأيه، عظيم في...، عظيم في همته وأطماعه، عظيم في كل موقف من مواقفه.

وله قدرة فائقة علىٰ مراعاة عواطف جلسائه وزائريه، واحترام مبادئهم وأذواقهم، فهو يُظهر الإعجاب بالنكتة يحكيها أحد الحاضرين مهما كانت باردة، وربما استعادها منه وهو في غنىً عنها إدخالاً للسرور عليه، ويصفق للمغنّي وهو متغنّي منه، ويقول له عند انتهائه: «أحسنت».

وقلت له مرّة وقد قال لمغنٍّ مزعج: أيها السلطان، لقد أحسن بسكوته! فضحك.

وكان الفقيد لا يقصر في إكرام أهل الفضل والصلاح، ولا يعتذر عن شفاعتهم، وكان يستمدّ الدعاء منهم، ويحضُرُ مدارسهم، ويسمع مواعظهم. وكنت ذهبت وإياه مراراً إلىٰ المَدْرس المرتب يوم الخميس بمسجد الحبيب علي بن عبد اللّه، وجلسنا إلىٰ النهاية، ولما انصرفنا قال لي: إن أحد فضلاء العلويين حثه علىٰ حضور هذا الدرس ولو في الشهر مرة.

ومجالس الفقيد الأنيسة، ومسامراته الرائعة، وفكاهته الحلوة، مباهجُ خلاّبة، تستهوي الألباب، وتأخذ بمجامع القلوب، وتدل علىٰ غزارة الرجل في الأدب، واتساعه في الرواية، وتمكنه في الحفظ.

**معلوماتُه:**

لفقيدنا ــ رحمه اللّه ــ إلمام لا بأس به بأطرافٍ من الفقه والنحو واللغة؛ ولكنه من جَرّاء تدرُّبِه علىٰ الأحكام، وكثير احتكاكه بمجلس القضاء الشرعي، واطلاعه علىٰ حيثيات أحكامه، فقد اتسعت معلوماته، علىٰ الخصوص بكتاب القضاء في الفقه.

وله في الأدب العربي والتاريخ الإسلامي قدمٌ راسخ، ورواية صالحة، يجعلانِه يتفوقُ علىٰ أكثر جلسائه عند الخوض في هذين العلْمَيْن، وله دراساتٌ عميقة في شعر أبي الطيب المتنبي، تحدو به إلىٰ التعصب له وتفضيله علىٰ كل شاعر.

وقد أدرك الفقيد أفراداً من رجالات آل كثير والعوامر الذين حضروا تأسيس الدولة الكثيرية الجديدة، وعاركوا مجرَيات تلك الأيام، فحفظ عنهم الشيء الكثير من تأريخ ذلك العهد، وما قيل فيه من شعر وأراجيز.

**شهرتُه :**

وقد سارت الركبان بفضله، وانتشر صيته في الآفاق، وأتاه الزائرون: من أعيان القطر وكباره، ومن سواح الأجانب وباحثيهم، وكلهم يصدر عنهم معجباً بأخلاقه وآدابه وتواضعه المحمود، وكتب عنه فندن ميلن الهولندي، والميس لي فرستك الإنكليزية، والهرهنس الألماني، في رحلاتهم، كتاباتٍ كلها شائق وصادق. وقد كاتبه ملك مصر وملك العراق ملبيَيْن مُلتمَسَه في إرسال البعثات الحضرميّة إلىٰ بلاديهما والتعليم علىٰ نفقتيهما أنفسهما.

**وفاتُه :**

وفي مساء الأربعاء لتسعَ عشْرة ليلةً خلت من شعبان، فوجىء الشعب الحضرمي بنعي سلطانه المحبوب، فهرع الناس إلىٰ سيئون حيث شيعوا جنازته إلىٰ مقبرة آبائه الفخام، رحمة اللّه علىٰ الجميع.



❊ ❊ ❊

# بعدَ خمسين سنة[١]

في غـرة شعبان سنة ١٤٠٧هـ نشـرت جريدة «العاصمة» اليوميّة، التي تصدر بسيئون، مقالاً مُسهباً شائقاً بقلم السيدة «حسناء»، قارنت فيه بين حالة حضرموت قبل خمسين سنة، أي: في عصرنا هذا، وبينها تلك الآونة.

وهو وحْيٌ خيالي نقتطف منه لقراء «الإخاء» ما يأتي:

قالت: «إن تكُ سنة ألف وثلاثمائة وسبع وخمسين وما حولها مجهولاً عنّا بالعين، فإنَّه معلومٌ لدينا بالأثر، لأننا وإن كنا لم نزل في ذلك العصر كامنينَ في أصـلاب الآبـاء وبطـون الأمهـات، إلاّ أنَّ العهـد ليس ببعيد، (والدَّحْقَـة خضراء) كما يقولون، والشباب الذين جاهدوا في ذلك الجيل الرهيب لم يزل منهم اليوم أفرادٌ وَقُورونَ بين ظَهْرانَينا، يقصّون علينا من أنبائه، ويمطرون فينا من أنوائه، ما يجعلنا نعلمه علم اليقين، وهذه «السينما» الناطقة تسامرنا ليلياً بما حواه من عـادات واجتماعيات، وما وقف به أفراده ــ رحمهم اللّه ــ من مواقـفَ سياسيـة أرغمتهـم عليها ظروف الأحـوال، وتطلَّبتهـا منهـم بيئاتهم المملوءة بالأشواك.

وإن شئنـا أن نزداد دراية بحياة ذلك الجيـل، فإن أمامنـا صحفهم وإن

---

(١) مجلة «الإخاء»، العدد التاسع، السنة الأولىٰ، رمضان ١٣٥٧هـ، نوفمبر ١٩٣٨م.

كانت ضئيلة، ومصنفاتهم وإن كانت قليلة، إلاّ أنها لم تزل طريةً غضة، تشرح لنا الحال بأجلىٰ وضوح، وأفصح بيان، وهَا تحتَ متناولِ أيدينا كتاب «تاريخ الدولة الكثيرية» للأستاذ محمد بن هاشم، وهو شاهد عيان لا يكتب إلاّ عن يقين، ولا ينبىء إلاّ عن خبرة، وقد بسط الحال في الجزء الثالث من كتابه بسطاً كافياً وافياً، حتّىٰ أصبح منهلاً عذباً للوارد، ومرعىً خصباً للرواد.

**المعارف:**

يرىٰ الناظر في التاريخ أنَّ النسبة بعيدةٌ جدّاً بين معارفنا ومعارف أهل ذلك الجيل؛ فقد كانت الأميّةُ فاشيةً في متحضّريهم، وعامةً في باديتهم؛ إذ لا تكاد تجد ستة في المائة (٦٪) من عموم المتحضرين رجالاً ونساء، وواحداً في المائة (١٪) من سكان البدو يحسنون القراءة والكتابة.

أمّا اليوم فقد انعكس الحال، وأصبح من النادر البعيد أن تجد ستة من الأميين أو الأميات في المائة من المتحضرين، وأن تجد عشرين في المائة من عموم سكان البادية، وذلك بفضل هذه المدارس الكثيرة التي عمت القطر كله حاضرته وباديته.

والمعارف لدىٰ النساء إذ ذاك نكرة من النكرات: المقصودة وغير المقصودة، ولا يُعرف للبنات مدرسة من المدارس ولا كُتّاب من الكتاتيب، غير أن «جمعيّة الأخوّة والمعاونة» بدأت تفتح شبه مدرسة لهنَّ وهي خائفة تترقب لموقف بعض النّاس ببناتهم صوب هذه المدرسة، بين همس الهامسين، وإنكار المنكرين، ولم يكونوا قطُّ يحلمون بأنَّ التطور العلمي سيعمر المرأة: من فَرْقها إلىٰ قدمها في بحر خمسين سنةً، حتّىٰ يوصلها إلىٰ ما وصلت إليه اليوم من الرقي والثقافة.

يتبجح كُتّاب ذلك العهد بأن فلانة من بنات السادة الأشراف قد تجمّعت

فيها شـروط القضاء إلاّ الذكورة! ولم يدُرْ بخلدهـم ــ رحمهـم اللّه ــ أنَّ في مساكنهـم اليوم أكثرَ من العَشْر توفرت فيهنّ الشروط؛ وغيرَهنّ ممن يحملن الأقلام فيَسْتَهْوِينَ بها العواطف، ويحرِّفن بها المبادىء، ويقلبن بها الأفكار، وأُخرياتٍ يتربّعن منصّات التعليم، ويُتقِنّ أفانينَ التربية، ولا إخالُهم يصدّقون لو قيل لهم في عصرهم: إنَّ هذا سيكون بعد مضي نصف قرن؛ ولكنه قد كان! وانطلق بنا تياره نحو الأمام لا يلوي علىٰ شيء.

وكيف لا يكون ذلك، وهذه مدارسنا زاهرةً زاهية، تملأ القطر انتشاراً، ولا تقصِّـر: نظاماً ولا هنداماً عن المدارس الراقية في هذا العصر، ولم يزل وزير معارفنا السيد . . . باذلاً أقصىٰ وُسعه في تعميم الثقافة وتنمية المعارف؟ وقد حدثني بعض أذكياء المعمَّرين أنّه لم يكن بحضرموتَ في منتصف القرن الماضـي ولا مدرسةٌ واحدة حكومية. وإنما هي أربع أو خمس مدارس أهلية مضطربة البرامج متباينة الخطط، تسبح في بحار من الفوضىٰ لا حدّ لها.

**الصّحافة:**

والصَّحافة ليست حينذاك سوىٰ دُعابةٍ لطيفة يتسلّىٰ بها أصحابها لا يُقام لها وزن، ولا يسمع لها صوت، وهل لقارئنا أن يتصور أن جريدة «الإخاء» التي تعد اليوم من كُبْرَياتِ الجرائد اليومية، والتي تطبَعُ في يومها ما يناهز الخمسةَ آلاف نسخة، لم تكن تلك الأيام إلاّ جُريّدة صغيرة شهرية، يكتُب منها صاحبها بقلمه وبأقلام من يساعده خمسين أو ستين نسخةً فقط، إذ لا توجد ولا مطبعة واحدة في طول الوادي وعرضه؟

**المواصلات:**

لم يعـرف النّـاس في ذلك العصـر هـذه الطائـرات العموديـة الصعود والهبوط، والتي عمّ اقتناؤها وجه البسيطة لسرعتها وخفة مؤنتها وبُعدها عن

الخطر، ولهذا تهافت عليها الحضارمة رجالاً ونساء، ولا سيما بعد أن افتتح الاستثماري العربي الكبير، السيد... ورشته بالمكلا، وجعل لها فرعاً بسيئون، ويرىٰ الفتيان الحضارمة أن سوقها أسهل لهم بكثير من سوق الجوالات الحديثةِ الطراز.

وبعد أن كان البريد يصل من جاوىٰ ــ مهجر الحضارمة السابق ــ إلىٰ حضرموت في نحو الشهر، أصبحنا اليوم نتناول بريدَ أبعدِ نقطة عنا في أقربَ من الأسبوع.

وأهل ذلك الجيل يهزون رؤوسهم إعجاباً بما وصلوا إليه من طيِّ المسافة من تريم إلىٰ الثغر في يوم واحد علىٰ سيارتهم المنقرضة التي لم يبقَ لدينا منها إلاّ رسومها في الصحف القديمة أو النماذج المعروضة في دار الآثار، ولم يعلموا أن أطفالهم الذين في الأقمطة سيكونون بعدُ أسرعَ منهم حركة؛ إذْ يرسل أحدهم رسوله إلىٰ الثغر ويقوم هو إلىٰ الاستحمام والصلاة بعده، فما يفرغ من صلاته إلاّ وقد عاد رسوله من الثغر!

ولم تكن تُعرف لديهم الهواتف الجَيْبية الأثيرية التي نحملها اليوم في جيوبنا فنخاطب بها البعيدين عنا، وإنما كانت بتريم فقط عند بعض أهل الثراءِ (تليفونات) من الطراز العتيق المنقرض ذوات الأسلاك يتخاطبون بها بواسطة المركز، فيضيع وقتهم في تنبيه المركز وإعلامه بالنمرة وفي تنبيه المركز للمطلوب خطابُه.

**الاقتصاد:**

من المتعسر، بل من المتعذر أن نقارن بين حالنا الاقتصادية وبينها قبل خمسين سنة، لأن النقد أصبح غير النقد، والكسور غير الكسور، وكانت وحدة النقد عندهم هو الريال النَّمْسَوي الذي يسمونه فرنصاوي، وما كان

تستعمل في داخلية القطر هذه (الربّيات) المتداولة الآن بيننا، ولا هذه القراطيس المالية. وأول بنك تأسّس بهذه الأطراف إنما هو منذ ربع قرن فقط تقريباً، ثُم تلاه البنك الزراعي.

وكانت جاوىٰ وسينغافورا مصدر ثروة ذوي الثراء بحضرموت يتمتعون بما في أيديهم وما يأتيهم منها من غلاّت عقاراتهم بها، ويصرفونه فيما شاءت لهم أهواؤهم من خير أو شر، والبلاد تئنّ وترزَحُ تحت أعباء الفقر المدقع، ولا يسمىٰ غنياً من لا يملك إلاّ عقاراً من أطيانها أو غيلها، إذ لا يتحصّل من ذلك علىٰ شيء فيه غنىٰ.

والأمطار تهطل سنوياً أو بعد سنتين، وتسيل الأودية، ولكن ذلك يكاد يذهب عبثاً؛ لأنَّ شؤون الري مهملة جدَّ الإهمال، فلا سدود ولا تِرع ولا قنوات، ولا غير ذلك من وسائل الري كما تراه الآن عاماً في جميع أنحاء القطر. ومن أجل ذلك، كانت أسعار المطعومات لديهم علىٰ جانب عظيم من الغلاء والارتفاع، لا يكاد يصدِّقه ابن عصرنا، فالحنطة مثلاً تباع وقت الرَّخْص ثمانيةُ أمداد تريمية بالريال الواحد، وإنما قلنا: (تريمية) لأن المكيال في ذلك العهد لم يوحَّد بعدُ توحيداً عاماً كما هو الآن؛ فتريم إذ ذاك بمُدِّها، وبور بمدِّها، وسيئون بمدها، وشبام بمدها، وهلم جراً.

وحضرموت اليوم تمدُّ جاراتها وغيرَ جاراتها بما يصدَّر منها من الحبوب والثمار واللِّبان والعسل، كما كانت سابقاً تستمدّ من الخارج، ومصانع النسيج بها ــ وإن كانت في هذا الوقت قليلة ــ لا تفي بحاجة البلاد، إلاّ أن سيرَها إلىٰ الأمام يبشر في المستقبل بالنجاح والفوز بمضاهاة كبريات المصانع العصرية.

## الأخلاقُ والاجتماع:

نحن الآنَ إنّما نسير في رد فعلٍ صالحٍ مما غمر الناشئةَ بحضرموت منذ ربع قرن تقريباً، من تدهور الأخلاق، والافتتان بالدعايات الأجنبية والبوارق الإلحادية رغماً عن اتجاه العالم في القرن الحادي والعشرين إلىٰ رحاب التدين الإسلامي ومكارم الأخلاق؛ ولكننا نحن ــ الحضارمة ــ سرعان ما نمَلُّ، وسرعان ما نستفيق، فقد شذَذْنا شذوذاً بعيداً، ولولا أنْ قد تداركَنا ألطافُ البارىء ــ جلّ جلاله ــ بهمة أولئك المصلحين من أئمة قومنا، لرحنا ضحية ذلك الشذوذ.

والآن، وقد نزَعَ ثانيةً بعضُ فتياتنا إلىٰ السفور وحاولْنَ نبذ التقاليد التي يزعُمْنَها منافية تماماً للثقافة العصرية، وطفِقْنَ يهمسن، بما قد مَلِلْنَه قبلَهن المسلمات الناهضات، معترفاتٍ بحقيقة ما قرره الشرع الإسلامي في نحو الطلاق وتعدد الزوجات.

ونحن ننصح لهذه الفتيات بأن لا يتلاعبن في النار، ولا يعُدن لفتنة جدعاء بين أبناء الوادي، ولا يحسَبْن الأمر سهلاً مسَاغاً؛ فالجمهور قد أفاق عن غفلته، ونزع عن غَيِّه، وعاد إلىٰ الالتفاف حول راية قوميّته وتقاليدها وأحكام شريعتها.

ونحن إن التفتنا وراءنا، وشخَصْنا بأبصارنا إلىٰ ما قبل نصف قرن، نرىٰ أن أخلاق أهل ذلك الجيل بحضرموت وآدابهم، أقرَبُ إلىٰ النزاهة والحشمة من أخلاق أهل جيلنا وآدابهم، وإن كنا اليوم أوسع إدراكاً وأرقىٰ تعليماً منهم، وأن التمسك من نساء ذلك الجيل بالتقاليد القاضية بإفراز النساء عن الرجال، واستبشاع خلوة الأجنبية بالرجل، كان ذلك سبباً لخفوت الجرائم الجنسية وخنوسها، وهي التي يضجُّ مجتمعنا اليوم من تفشيها.

**الأغاني والموسيقىٰ:**

وإذا نظرنا إلىٰ الأغاني الشعبية التي يُتغنىٰ بها في الجيل المشار إليه وجدنا الانحطاط يحْتَوِشُها من كل نواحيها، ووجدنا أغنيتنا اليوم أرقىٰ أدباً، وأغزر معنىً، وأشجىٰ تلحيناً.

ولم يكن لدىٰ المشْتَرِحات اللواتي يتغنَّين للنساء، يُطرِبْنَهُنَّ في الأفراح إذ ذاك من الأدوات الموسيقية غير الهاجر والمراويس، ويزيد مطربو الرجال ناياً واحداً فوق ذلك. والظاهر أن الجمهور حينذاك يحرّم الأوتار ويكره التمتع بها في الحفَلات العامة كما هو الحال عند متنسكينا اليوم.

ولعلّ التطور قد غفل عن أن يلم بالسماع المعروف (بأخدام السقاف)، فقد ظل هذا تحفة أثرية لا تتحول ولا تتبدل منذ مئات السنين حتّىٰ الآن. وكذلك أصوات (الري) = (الراية)، وأصوات التأْبير (الفُخْطة)، وغيرهما من الأنغام المخصوصة بالمِهَن، فهي لا تزال كما هي منذ جاهلية حضرموت.

**السياسة:**

في ذلك الوقت العصيب بدأت حضرموتُ تُوجِد لها اتجاهاً منضبطاً نحو وجهة سياسية معينة بعد أن مضىٰ عليها الردح الطويل وهي تتسكّع في اضطراب سياسي عظيم لا مرمىٰ له ولا شأو، ففي حوالي سنة ١٣٥٥هـ طفِق رجال من مفكريها ورجال العمل بها يتحفزون للثورة والقضاء علىٰ تلك الفتن الفوضوية والمظالم العشائرية التي جعلت حضرموت أتوناً جحيمياً، تتلهَّبُ شروره وأشراره من الجور والقتل والخوف والاعتداء.

وقام المفكرون والعاملون يفكرون ويعملون ونفوس الشعب قد زهقت، والأكباد قد غاثت، من شَدِّ ما لقيته وما تلقاه من المناكر وأكَلاتِ القويِّ الضعيف بدون وازع ولا رادع. وحكومات القطر تتكافأ قواها مع قوىٰ العشائرِ

المتسلحة اللواتي لا يوجهها روح اجتماعها إلاّ إلىٰ العصبية الضارّة، بل ربما زادت قـوىٰ هؤلاء علىٰ قوىٰ الحكومات، التي أصبح رعاياهـا أذلاّء ضعفاء خائفين يتخطفهم الناس من حول المدن.

وبذل المصلحون جهودهم في اتحاد الحكومتين، وجَعْلهما قوةً واحدة ضد الباغين والعابثين بأمر القطر، لعل اتحادهما يفيد في كبح جماح الأهواء الصائلة. لكن كلّ ذلك لم يُغنِ فتيلاً، لارتباك الإرادات في الدوائر الرسمية، وخلو الرحبة عن رجال الأعمال، وأيضاً بسبب تشبع الأدمغة والنفوس بالأنانية والعصبية العاثرة.

وخاب كل أمل في الإصلاح وفشلت كل وسيلة، والشر يستفحل خطره، والقطـر يجود بنفسه آيساً مقهـوراً. وسلاطينه أصبحوا ولا حولَ ولا قوّةَ في تعزيـز حق ولا إزهاق باطـل، وحكومة عدت تضحـك في أكمامهـا سُخريةً واستغراباً من أنَفَة هذه الحكومات، وكبريائها الذي يتحيز في جانب أدمغتها دون جانـب؛ فقد شاءت أن تخضع لكل ذلّ وتتحمل كل إهانة تنالهـا وتنال بلادها من تلك الشراذم المسلحة، ولم تشأ أن تستغلَّ معاهدَتي سنة ١٨٨٨م وسنـة ١٩١٨م اللتيـن لم تُعقـدا عبثـاً، وبالأحرىٰ لم تعقَـدا لمصالح الطرف الإنجليزي فقط.

وهبَّ المصلحـون من غفلتهم، وعلمـوا تفريط الحكـومتين فمَلُّوهما، وخاطب السلاطين حكومة عدن في إسعادهم علىٰ إصلاح بلادهم، وسرعان ما خُضِدت شوكة الباطل، وقامت موازين الحق، وعمَّ الأمن وهدأت البلاد، وساء الفاسدين ذلك الإصلاحُ، وكبُر علىٰ الجامدين ذلك الانقلاب، وأرجف المرجفون، وتكهّن الخراصون، وسَدّ صراخهم الأفق، بأنَّ هذا هو الاستعمار نفسه، تتبعه الحريّة الشائنة والخمر والفجور والتبشير والإلحاد.

والآن، وقد مضت علىٰ هذا الانقلاب السياسي خمسون سنة، وأصبحت خريطة العالم السياسية غيرها بالأمس، وتعاقبت علىٰ حضرموت مدة متناقضة الألوان، تكتسي فيها مرّة حللاً من الحرير الفضفاض، وأخرىٰ نسيجاً من أشواك القتاد؛ فنحن الآن إن شكونا من شيء فإنّما نشكو من تشبث حكومة عدن بحماية القطر الحضرمي، بعد أن قدمت لها حكوماتنا المتحدة برنامجها الذي تطلب به الانضمام إلىٰ الحِلْف العربي، مع حفظ شيء من الحقوق السياسية لحكومة الإنجليز، حفظاً للجميل وتذكاراً للمعروف. . . .

هذا ما تخيرنا نقْله من نفثات السيدة «حسناء»، وهذا هو وحي الخيال المقيد بقيود المقارنات، والمستضيء بقياس الحاضر بالماضي، والمستقبل بالحاضر، فهو إن أخطأ الحقيقة فقد أصاب ظلها، وإن لم ينلها هي نفسها فإنه ينال بخارها، وكلُّ آتٍ قريب، ومن يعشْ يرَ.



* * *

# سيْرُ المعَارِفِ بحَضْرمَوت[١]

## (١)

ـ ما هي المعارف عندكم بحضرموت؟

ـ عجباً! وهل المعارف عندنا هي غيرها عند سائر النحاة، من المفرد العلم، والمحلَّىٰ بأل، والضمير والموصول. . . إلخ؟

ـ اللّه! لقد نسيت أنَّ هذه معارفُ أيضاً، وأنا لم أقصد إلاّ العلوم والفنون.

ـ ومتىٰ سميت العلوم والفنون معارفَ إلاّ بعد ظهور اصطلاحاتكم هذه الغريبة عنا؟

جرىٰ هذا الحوار القصير إبان كنتُ بجاوىٰ بيني وبين بعض مواطنينا المحافظين، القادمين حديثاً من حضرموت. وكانت حضرموت في ذلك العهد، أي: حوالي سنة ١٣٢٥هـ، في عزلة بعيدة عن الاتصال بالعالم المعمور وجرائده. وكان النّاس إذ ذاك يكبِّرون من شأن من يطالع الجرائد، وينظرون إليه نظرهم إلىٰ طُرفة غريبة بين ظهرانيهم، وربما اعتبروا تلك الطرفة بؤرة فساد ينال المجتمعَ شيءٌ من ضررها، ولم يكونوا يعرفون من الجرائد

---

(١) مجلة «الإخاء»، العدد الحاديَ عشر (١١)، ذو القعدة ١٣٥٧هـ، يناير ١٩٣٩م.

والمجلات إلاّ أنّها (أوراق أخبارٍ)، أو أنها أسواق (بدَعٍ وتُرَّهَات)، لا منابع ثقافة، ومناهل أدب وعلم.

وكانت كلمة «المعارف» بمعناها الشائع اليوم لا وجود لها في معاجم القوم ومصطلحاتهم، عدا ما يقاس به النكرات في كتب النحو، وإنما كانوا يطلقون لفظة العِلْم علىٰ ما يتلقاه بعض الأفراد علىٰ غيرهم من الفقه والنحو وكتب التصوف، ولهذا لم يسَعْني إلاّ السكوت أمام محاوري المشار إليه آنفاً، مقراً بخطائي الغير المقصود.

والمدارس عندهم جمع لمَدْرَسٍ، لا لمدْرَسة، والمدْرَسُ: هو محفَلٌ يقرأ فيه كل من طلاب العلم ما يختاره من الكتب، علىٰ من يتبرع بالتصدُّر لسماعه أو للتقرير أحياناً. وقد يجتمع جماعةٌ من أنصاف العلماء، فيقرأون كتاباً يتباحثون في محتوياته بحثاً مستفيضاً.

أمّا المدرسة المعهودة اليوم، فلم تكن تعرف حينذاك؛ غير أن رباطَ تريم الذي أنشىء أوائل هذا القرن كان له فضل عظيم في ضبط الطلبة، وتحديد أوقات الدراسة، واصطباغ الهيئة الدراسية بشبْه صبغةٍ نظامية.

* * *

وكانت المعارضة قوية جدّاً من كثير من أعيان تريم ووجهائها ضد مشروع الرباط وتأسيسه وافتتاحه، واشتغلت الأفكار والألسن بالأخذ والردّ، والرفع والحط، وقتاً طويلاً، يعِزّ صرفه في مثل هذه المشادّة النكدة التي توجب النكد والاستغراب، من تعصب ممقوت تجاه مشروعٍ علمي كهذا!

وافتتح بعد ذلك رباطُ سيؤون، فكاد معشْعَشاً جديداً للطلاب، وزيادة في تسهيل التحصيل للراغبين، ولكن المعارف ظلت سائرة في القطر الحضرمي سيراً متعثراً بين رباطي تريم وسيئون، وبين ما يسمونه مدْرَساً، وهو

كما ذكرنا مجلسٌ اختياري، فالطالب والأستاذ إن شاء كل منهما حضروا، وإن لم يشأ لم يحضر، (بالخُشّي).

والمعارف المطلوبةُ التقرير إذ ذاك هي: الفقه والنحو لا غير، ويلتزم الطالبون أحياناً بسرد شيء من الحديث، والسيرة النبوية، وتراجم الصوفية وأخلاقهم، وقد ينظر بعض الطلبة في التأريخ وكتب الأدب نظراً ثانوياً.

ثمَّ جاءت «جمعية الحق» في تريم بمدارسها، وتلتها «جمعية نشر الفضائل» وكتاتيبها، و«النهضة العلمية» بسيئون ومدرستها.

وتلقت الأولىٰ من هذه الجمعيات ما يتلقاه كلُّ جديد من المعارضة في الأوساط المحافظة، ولكن مستوىٰ التدريس ارتفع بفضل هذه الجمعيات إلىٰ درجةٍ لا بأس بها، إذ تقرّر للمدرسين مرتبات شهرية تعينهم علىٰ القيام بواجبهم المدرسي، وتصدت لتحرير البرامج والمناهج التي تلائم طبيعة التلامذة والبلاد، وأدخلت في التعليم فنوناً جزئية لم تكن معهودة من قبل، فنتج عن كل ذلك نتائج مباركة عادت علىٰ البلاد وأهلها بشيءٍ من التنوُّر الفكري واتجاه الأنظار إلىٰ الأمام.

ولا نود أن نسجّل ما نستدركه هنا، بيد أن بَخْسَ الحقيقة شيئاً من حقوقها هو خيانة شنيعة لها وللتاريخ أيضاً.

* * *

لذلك، نضيف إلىٰ ما تقدَّم أن المجهودات العظيمة المادية والأدبية التي بذلها العاملون في تلك الجمعيات والمدارس لم يكُ محصولها وافياً، ولا بمعشار الغرض المرام، رغماً عمّا أشرنا إليه من النتائج المباركة منها، وذلك لأن تقزز المحافظين المتعصبين وتحرزهم من كل جديد كبَّل أيدي المصلحين عن الاسترسال السريع في إصلاحاتهم، بل إن من أولئك العاملين أنفسهم من

يتثاقل عن غير المألـوف، ويتخوفُ عن زعزعته الأوضاعَ الجامدة التي شبَّ عليها الشعب وشاخ، مهما كان أثرها سيئاً في العقول والأخلاق، ومهما كان ضررها بليغاً في الحيلولة دون الوصول إلىٰ باحات الثقافة المنشودة.

هذا من جهة؛ ومن جهة أخرىٰ: لأن القحط الشديد ممتدّ وعامّ في القطر عن الأساتذة البيداجوجييـن الذين أحرزوا نصيباً من المعرفة بأساليب التعليم ومناهج التدريس، وأدركوا شيئاً من أسرار التربية، وتثقيف الأخلاق، وتهذيب النفـوس، والأخذ بأيدي الناشئيـن من الحضيض، والارتفاع بهم شيئاً فشيئاً حتىٰ يصلوا بهم إلىٰ المستوىٰ المعدّ لهم.

من أجل ذلك التقزز من الجديد، ومن أجـل هـذا القحط الشديد، لم تقطع المعارف بحضرموت في سيرها أشواطاً تناسب المجهودات التي بذلت لأجلها، فقد مكثَتْ سنيناً وأعواماً وهي تمشي مشياً حلزونياً لا يكاد يزيد شيئاً في كمِّها وكيفها الأول.

***

وفي سنة ١٣٤٦هـ عاد كاتـب هذه السطـور إلىٰ وطنـه حضرموت بعد غيـاب (٢٣) سنة عنها، واختارتـه «جمعيـة الحـق» لأن يتولىٰ نظـارة التعليم بمدرستهـا في تريـم. وتمـت المفاوضـة علىٰ أن يتولاهـا لمـدة سنتين فقط للتجربة؛ فجفل المحافظـون جفولاً عظيماً، وأثاروا زوبعةَ ضجيجٍ صرصريةً كادت تعصف بالمدرسةِ ونـاظرها، وبُثَّت العيونُ والأبصار حوالي ذلك الناظر، فـ ـبوا عليه حركاته وإشاراته. بلْهَ كلماته وعباراته.

وألّفتْ إدارةُ المدرسة لجنةً لمراقبةِ سيرِ التعليم وسلوك الأساتذة، (إياكِ أعني واسمعي يا جارة)، وكان من حُسن حظنا أن كان أعضاء اللجنة من أبطال الأد ـ ومتنوّري الشبيبة، وهم السادة: عبْدِ اللّه بن محمد الكاف، وأحمد بن

عمر الشاطري، ومحمد بن حسن بن شهاب الدين، فكانوا يرفعون للإدارة التقارير الصادقة رغماً عن الإرْجافات المختلفةِ التي تسمعها يومياً فترعِدُ فرائصُها.

واستطعنا أن نزيد في برنامج التعليم فنوناً جديدة، منها: التوحيد، والتاريخ، والميقات، والجغرافية، والإنشاء، والمطالعة العربية... إلخ، فكان لهذا البناء فزعة هائلة في الدوائر العامة والأوساط المحافظة، غير أنَّ الإدارة لم تعبأ بشيء من هذه الزعقات المزعجة، وظلت المدرسة سائرة في سبيلها المرسوم لا تلوي علىٰ شيء.

وفي أواخر سنة ١٣٤٦هـ دُعينا إلىٰ دار الإمام العلّامة المغفور له عبد اللّه بن عيدروس العيدروس ــ في حياته ــ ودعي رجالُ الإدارة وأعضاء اللجنة المراقبة ومعلمو المدرسة وغيرهم، وكأنما دعينا إلىٰ «محاكمة» عن اتهام غليظ، فقد غصَّت القاعة بالمدعوّين، وتولىٰ استنطاقَنا الإمامُ المشارُ إليه، فباحثَنا طويلاً، ورأينا منه تخوفاً عظيماً علىٰ مستقبل النّشء، فسألَنا عن التاريخ، وما ننتهي إليه في تدريسه، فأكَّدْنا له عدَمَ الخوض فيما جرىٰ بين الصَّحابة رضوان اللّه عليهم. وسألَنا عن كلمة «جُغْرافية» ما المراد منها؟ فقد أقضّت مضاجِعَ أقوامٍ وأقلقتهم، فقلنا: إنما هي «تقويم البلدان»، فأشار علينا باستبدال هذا الاسم باسم «جغرافية» الخشن. ثمَّ سألَ أعضَاءَ اللجنة المراقبة عما يعلمونه عَنّا، فأجابوا بخير، وسأل المعلّمين واحداً واحداً عمّا يسمعونه من تقاريرنا وما نبثه في نفوس الطلاب، فلم يشاءوا أن يثبتوا خيراً ولا شرّاً، غير أن أحدهم قال: إننا مشغولون بدروسنا عن سماع ما يلقيه هذا الرجل في رَوْع التلامذة. وبعد أن استمرّت المباحثَةُ، أو بالحريِّ: المحاكمة، نحو ساعتين، انفضَّت الجلسة، وكان الفوزُ حليفَنا، والبراءَةُ نصيبنا.

وبانتهاء سنة ١٣٤٧هـ انتهت المدةُ التي بيننا وبين الجمعية، فقدَّمنا لها استعفاءنا من الاستمرار في النظارة، فقبلت ذلك منا، والحمد للّه.

* * *

وجاء من مصر الشيخ محمد منصور الشبيني الأزهري، وتصدىٰ للتدريس العالي في أصول الفقه وفي المنطق والبلاغة وغيرها، فالتفّ حوله أفرادٌ من المُولعين بالتفنن، وأخذوا عنه واستفادوا منه[١]، ولكن البضاعة كانت مزجاة، فما لبث الشيخ أن قوَّض خيامه وارتحل[٢].

* * *

وانتشرت بعد ذلكم أشباه المدارس في القرىٰ والضواحي، فقد قامت الجمعية العَيدَروسية بفتح معاهدها بـ«ثِبي» و«الرَّيِّضة» و«تاربة» و«بور» و«الحَزْم»، وهناك في «عِيْنات» قام السيد الداعيّة: حسن بن إسماعيل بتحسين مدرسة الحسين بن الشيخ أبي بكر وترقيتها، ثم أنشأ بها رباطاً يضم عدداً من الطلبة. وقامت كل بلدةٍ في القطر بفتح معْهد يسمّىٰ «مدرسة»، ففي كل من «جِفِل»، و«شِبام»، و«القَطْن»، و«هَيْنَن»، و«حُرَيْضة»، و«قَيْدُون»، و«رباط باعْشِن»، و«الخُرَيْبة»، ما يسمّىٰ مدرسة ابتدائية أو شبه مدرسة، تسير بالأمة إلىٰ حياةٍ هي أرقىٰ من حياتها الأولىٰ.

ولكنَّ المعارف ظلَّتْ هي معارفَ الأعلام، وأسماء الإشارة... إلخ،

---

(١) كان من أبرز الذين التفوا حوله ونهلوا من علمه، سماحة مولانا الأستاذ محمد بن أحمد الشاطري، رحمه الله تعالى، كما أخبرني بنفسه.

(٢) ارتحل إلىٰ سيون عند السادة آل الكاف أولاً، قبل مغادرته ورحيله عن حضرموت، كما أخبرني سيدي الأستاذ الشاطري رحمه الله.

وظلَّ كلُّ ما يدرَّسُ في هذه المدارس أو الأربطة إنما هو الفْقهُ، والنحْو، وشيء طفيفٌ من حساب القواعد الأربع، علىٰ النمط العتيق.

* * *

وأخذت الجرائدُ المِصْرية والتواليف العصرية الواردة إلىٰ حضرموت ــ بقصْدٍ وبغير قصد ــ تعمَلُ عملها في تلقيح الأفكار وتطعيم العقول.

وطفق التنوُّر الفكـري يسْري شيئاً فشيئـاً بين جماعة من شبيبة البلاد، وبدأت سحابةُ الجمود والبَلاَدة تنقشع عنهم رويداً، حتّىٰ أتيح لهم أن يعْلَمُوا أنَّ المعارف التي تحيا بها الأمم وتسعد بهما الأوطان، ليست هي الفقه والنحو فقـط، ولكنّ وراء الأكمـة ما وراءهـا من أوديةٍ شاسعـة، وشِعابٍ شامخة، ومروجٍ خَضِـرة، ومدائِنَ زاهـرة، وبحـورٍ من المعارف تصطخِبُ أمواجُها، ويزدحم ركّابها، ويغوص للآلئها طلابها.

* * *

وكان «لنادي الشبيبة» الذي افتتـح بتريـم سنة ١٣٤٩هـ أثَرٌ صالح في غراس النهضة الثقافية، وتكوين سلالم متقنة للعـروج عليها إلىٰ مستوىً أدبي يزحْزِحُ الغشاوة عن الأبصار، فكانت المحاضراتُ الرائقة التي تلقىٰ في قاعته مصابيحَ قوية الإشعاع، تخلُقُ في الحاضرين رُوحاً وثّابةً ليس لها وجودٌ من قبل.

وألقىٰ المرحوم السيد محمد بن أحمد بن عمر بن يحيىٰ مرّةً محاضرةً عنوانُها «العلم. . العلم»، فتح بها أكمام الأذهان، ودكدك بها جوامد الأفهام، وأبـان للناس أن العلم بحْرٌ زاخر لا ساحل له، يتغلغل في كل ذرةٍ من ذرات الحياة، ويحتاج إليه كل جوهرٍ فرْدٍ من جواهر الأجسام والأحلام.

* * *

وللفوضىٰ العشائرية، وتلاعبِ المسلحين بالأمن، دخلٌ كبير في عرقلة سير المعارف بهذه الديار، ومنذ أن بدأت الأفكار الوطنية تتجه إلىٰ القضاء علىٰ هذه الفوضىٰ المبرَمة باستغلال معاهدة سنة ١٨٨٨م بين القعيطي والإنجليز، بدأت المواصلات تتحسن، وأخذ السُّوّاح يتواردون علىٰ حضرموت ومعهم آلاتٌ ومقاييسُ شتىٰ، طبيعية وفلكية، كآلات ارتفاع المكان عن سطح البحر، وآلة أخذ أطوال البلدان وعروضها، وغير ذلك، مما نبّه أذهان الناس إلىٰ المعارفِ المحجوبة عنهم وفوائدِها.



❊ ❊ ❊

# سيْر المعَارف بحَضْرَموت[١]

## (٢)

وفي النّاس أشخـاص تودّ الإنسانيّـة لو أنْ سلِمَ المجتمـع من غرائزهم الضارية، وأولئك هم الذين أعماهم غرورهم في أنفسهـم عن أن ينظروا إلىٰ شيءٍ من محاسن غيرهم، وحمَلَهُم ذلك الغرور علىٰ أن ينتهجوا منتهجاً ذُبابياً لا يقع إلاّ علىٰ مواضع العلل، ومَساقط الصَّديد، والذبابُ المسكينُ له عُذْره، وله نزاهته عن الغرور؛ أما هؤلاء فقوم:

إن يسمَعوا الخيرَ يُخفوهُ، وإن سمِعوا شرّاً أذاعوا، وإن لم يسمَعوا كذَبوا

ونحن لا نعتقد العصْمَةَ من الخطإِ فيما نكتبه، لا في مقالنا السابق ولا غيره؛ ومن أجل هذا نُشْهِد قراءنا الكرام علىٰ أننا نعْزِمُ علىٰ أولئك النهّاشين والهمّاسين الذين أثاروا دندنةً وتهامساً حول كلمتنا السَّالفة: «سير المعارف»، أن يبيّنوا لنا ما أتيناه من افتئاتٍ علىٰ الحقيقة أو التاريخ، وعلينا بعد ذلك أن نُصلح خطأنا، ونرجعَ عن افْتِئاتنا.

وبعد؛ فلْنأتِ علىٰ بقية مقالنا في «سير المعارفِ بحضرموت»؛ فقد وقفنا

---

(١) مجلة «الإخاء»، السنة الأولىٰ، العدد (١٢)، ذو الحجة ١٣٥٧هـ، فبراير ١٩٣٩م، (ص: ٢).

عند تنبُّه الأفكار إلىٰ أن للحَياة علوماً أُخَرَ ضرورية، لا يصل الشعب إلىٰ باحاتِ الرقيِّ وربوعِ المجد إلاّ بعد التسلح بها.

وهذا التنبُّه موقف لا ينبغي الإعراض عنه؛ لأنَّ له شأناً جسيماً في خلق الرغبة والتطلع إلىٰ نيل تلك العلوم والمعارف، التي أصبحت منذ حينئذ موجودةً بالقوة لا بالفعل في الأذهان المتنورة، ومقصورة فيها بالإجمال لا بالتفصيل، وفي هذا ما فيه من فائدةِ الاعتراف بالقصور عن إحراز ما قد أحرزَتْه الشعوبُ الحيةُ من مرافِقِ الحياة.

فلذلك، أخذت أعناقُ الشبيبة الحاضرة تتطاول إلىٰ اقتناص شيءٍ لشعبها ووطنها من تلك المعارف الغير المعهودة، إلىٰ ما هو معهودٌ بهذه الديار، فقد هبَّت هذه الأفكار العاملة تقيسُ وتستنتج، وتبحَثُ وتنقّب، وتقابل بين الحاضر والماضي في العلوم المعهودة نفْسِها، فإذا بالفرق ــ ويا للأسف ــ شاسع جدّاً، بين أفذاذها منذ أربعين سنة وبين أفذاذها اليوم، رغماً من أنّ مبادئها في وقتنا هذا قد شملت من النّاس أكثرَ من ذي قبل.

فإنّك اليوم لا تستطيع أن تجد أمثال أولئك الأفذاذ الذين رأيناهم وحضرنا مجالسهم، من السادة الأماثل: عيدروس بن عمر الحبشي، وعلي بن محمد الحبشي، وأخيه الحسين، وأحمد بن حسن العطاس، وعبد الله بن محسن السقاف، وأخيه عبيد الله، وعلوي بن عبد الرحمن السقاف، وعبد الرحمن بن محمد المشهور، وأحمد الخطيب، وأبي بكر الخطيب، وأبي بكر بن عبد الرحمٰن بن شهاب الدين، والحسن بن علوي بن شهاب الدين، وعبد الرحمٰن القاضي بافضل، وعمر بن عبد الرحمن المشهور، ومحمد بن عثمان بن يحيىٰ، وحسين بن أحمد الكاف، وعلي بن عبد الرحمن المشهور، وغيرهم ممن غاب الآن عن الذاكرة اسمُه.

ولم يكُ معنىٰ هذا جحْدَ ما لعلماء عصرنا من الاتّسام في العلم وطول الباع في التحصيل، وإنما معناه: أنّ بحْثَ الباحثين قد أسفر عن تقهقر المعارف المألوفة بحضرموت تقهقراً يخشىٰ منه، واليوم وقد راجت أسواق المحاكمات، وكثرت المطالبات بالحقوق؛ فعلم الفِقْه هو أجدَرُ بأن يُهتم به ويلتفت إليه.

* * *

وليس من المروءة ولا الشرف ــ وقد بحثنا في هذا الموضوع ــ أن نمرّ مُعرضين عمّا لبيت «السادة آل الكاف» من أيادٍ ضافية علىٰ المعارف، ملأت سمع حضرموت وبصرها، وما له من نجوم المكرمات العلمية المنتشرة في أدنىٰ وادي الأحقاف وأقاصيه؛ فكم من معهد من معاهد التثقيف، ومَدْرس من مدارس العلم تجد لهذا البيت يداً إمّا في تأسيسه أو في ترميمه وتعميره أو في المشاركة في الإنفاق عليه، وكم من كتاب من الكتب العلمية كالمهذَّب وغيره قد طبع وانتشر مجاناً بفضله، وكم من أديب متلهّفٍ وقد أشبع نهَمَه من المطالعة في المطبوعات العصرية، والجرائد، والمجلات المجلوبة بفضل متنوري هذه العائلة.

* * *

وفي أواسط سنة ١٣٥١هـ، ظهر نادي «الأخوّة والمعاونة» الذي تحوّل فيما بعد إلىٰ جمعية ذات شأن، وقد أخذت هذه الجمعية علىٰ عاتقها تنشيط المعارف ونشر الثقافة حتّىٰ في الضواحي وبين البادية، وأوفدت دعاتِها، وبعثت بعثاتها العديدة المتكررة إلىٰ الأرياف والقرىٰ المجاورة وإلىٰ ربوع البدو النائية، وفتحت للنشء مدرسة نظاميّة لا تزال تبذل مجهوداتها في إيصال هذه المدرسة إلىٰ مستوىٰ المدارس العصرية الراقية، وأصدرت للقطر مجلة

عند تنبُّه الأفكار إلىٰ أن للحَياة علوماً أُخَرَ ضرورية، لا يصل الشعب إلىٰ باحاتِ الرقيِّ وربوعِ المجد إلاّ بعد التسلح بها.

وهذا التنبُّه موقف لا ينبغي الإعراض عنه؛ لأنَّ له شأناً جسيماً في خلق الرغبة والتطلع إلىٰ نيل تلك العلوم والمعارف، التي أصبحت منذ حينئذ موجودةً بالقوة لا بالفعل في الأذهان المتنورة، ومقصورة فيها بالإجمال لا بالتفصيل، وفي هذا ما فيه من فائدةِ الاعتراف بالقصور عن إحراز ما قد أحرزَتْه الشعوبُ الحيةُ من مرافِقِ الحياة.

فلذلك، أخذت أعناقُ الشبيبة الحاضرة تتطاول إلىٰ اقتناص شيءٍ لشعبها ووطنها من تلك المعارف الغير المعهودة، إلىٰ ما هو معهودٌ بهذه الديار، فقد هبَّت هذه الأفكار العاملة تقيسُ وتستنتج، وتبحَثُ وتنقّب، وتقابل بين الحاضر والماضي في العلوم المعهودة نفْسِها، فإذا بالفرق ــ ويا للأسف ــ شاسع جدّاً، بين أفذاذها منذ أربعين سنة وبين أفذاذها اليوم، رغماً من أنّ مبادئها في وقتنا هذا قد شملت من النّاس أكثرَ من ذي قبل.

فإنّك اليوم لا تستطيع أن تجد أمثال أولئك الأفذاذ الذين رأيناهم وحضرنا مجالسهم، من السادة الأماثل: عيدروس بن عمر الحبشي، وعلي بن محمد الحبشي، وأخيه الحسين، وأحمد بن حسن العطاس، وعبد اللّه بن محسن السقاف، وأخيه عبيد اللّه، وعلوي بن عبد الرحمن السقاف، وعبد الرحمن بن محمد المشهور، وأحمد الخطيب، وأبي بكر الخطيب، وأبي بكر بن عبد الرحمٰن بن شهاب الدين، والحسن بن علوي بن شهاب الدين، وعبد الرحمٰن القاضي بافضل، وعمر بن عبد الرحمن المشهور، ومحمد بن عثمان بن يحيىٰ، وحسين بن أحمد الكاف، وعلي بن عبد الرحمن المشهور، وغيرهم ممن غاب الآن عن الذاكرة اسمُه.

ولم يكُ معنىٰ هذا جحْدَ ما لعلماء عصرنا من الاتّسام في العلم وطول الباع في التحصيل، وإنما معناه: أنّ بحْثَ الباحثين قد أسفر عن تقهقر المعارف المألوفة بحضرموت تقهقراً يخشىٰ منه، واليوم وقد راجت أسواق المحاكمات، وكثرت المطالبات بالحقوق؛ فعلم الفِقْه هو أجدَرُ بأن يُهتم به ويلتفت إليه.

* * *

وليس من المروءة ولا الشرف ــ وقد بحثنا في هذا الموضوع ــ أن نمرّ مُعرضين عمّا لبيت «السادة آل الكاف» من أيادٍ ضافية علىٰ المعارف، ملأت سمع حضرموت وبصرها، وما له من نجوم المكرمات العلمية المنتشرة في أدنىٰ وادي الأحقاف وأقاصيه؛ فكم من معهد من معاهد التثقيف، ومَدْرس من مدارس العلم تجد لهذا البيت يداً إمّا في تأسيسه أو في ترميمه وتعميره أو في المشاركة في الإنفاق عليه، وكم من كتاب من الكتب العلمية كالمهذَّب وغيره قد طبع وانتشر مجاناً بفضله، وكم من أديب متلهّفٍ وقد أشبع نهَمَه من المطالعة في المطبوعات العصرية، والجرائد، والمجلات المجلوبة بفضل متنوري هذه العائلة.

* * *

وفي أواسط سنة ١٣٥١هـ، ظهر نادي «الأخوّة والمعاونة» الذي تحوّل فيما بعد إلىٰ جمعية ذات شأن، وقد أخذت هذه الجمعية علىٰ عاتقها تنشيط المعارف ونشر الثقافة حتّىٰ في الضواحي وبين البادية، وأوفدت دعاتِها، وبعثت بعثاتها العديدة المتكررة إلىٰ الأرياف والقرىٰ المجاورة وإلىٰ ربوع البدو النائية، وفتحت للنشء مدرسة نظاميّة لا تزال تبذل مجهوداتها في إيصال هذه المدرسة إلىٰ مستوىٰ المدارس العصرية الراقية، وأصدرت للقطر مجلة

طريفة، وهي التي نكتب فيها هذا المقال.

ولم تقصِّر هذه الجمعيةُ الناهضةُ في تموين بعثة العراق السلطانية وتزويدها بكل ما يلزم لها.

وأخيراً، أوفدتْ دُعَاتِها إلىٰ «العبر» للدعوة إلىٰ اللّه تعالىٰ، ونشر التهذيب، يصحبها العمّالُ لتشييد مسجدٍ هناك، كلل اللّه أعمالها بالنجاح.

* * *



ونتيجة المقال: أن السَّير العام للمعارف المعهودة بحضرموت وغير المعهودة، بدأ يوسّع خطُوتِه إلىٰ الأمام، بفضل الجهود المشكورة التي يبذلها المفكرون والعاملون من متنوري الشعب الحضرمي، الذي بدأ يستيقظ من سباته العميق.

* * *

# العَادَاتُ السَّافلة[١]

أُلقي إلينا منشورٌ إصلاحي طبع مطبعة «جمعية الأخوّة والمعاونة»، ونشَرَهُ مجلسُ الإصلاح الوطني بسيون، بعد مصادقة السلطان جعفر عليه.

وكان المنتظر من أهالي سيؤون أن يهللوا ويكبروا فرحاً وشكراً لما تقدم به المجلس المشار إليه، من رفْع تلك الأعباء الثقيلة عن كواهلهم، وكَسْر تلك القيود والأغلال عن أيديهم وأعناقهم. ولمَّا ندْرِ نحن عما إذا كان مجلسُ الإصلاح قد تسلم ولو كتاباً واحداً شكراً له علىٰ يده البيضاء هذه؛ أم لا!

غير أن الذي يجب أن نقولَهُ هنا: هو أنه ما دام في ناسنا رجال يكرِّسون شيئاً من نفيس أوقاتهم للتفكير في خدمة المصالح العامة، ويبْذُلون حصةً من جهودهم في سبيل ذلك؛ فإن لنا حقاً في التأميل باللحاق بالأمم الناجحة في مدرسة هذه الحياة.

ذلك؛ لأن الشعوب الحية الناهضة لم تنهض من كَبَواتها وتصلْ إلىٰ أوج حياتها الراقية إلا بأمثال هؤلاء الرجال الذين تهمهم شؤون مواطنيهم الهامة، فيأخذون بأتباعهم إلىٰ العلا، باذلين في ذلك جهوداً عسيرة ربما فنّدهم فيها

---

(١) مجلة «الإخاء»، السنة الثانية، العدد الأول، محرم ١٣٥٨هـ، مارس ١٩٣٩م. (ص: ٣).

المنفيّون وأوباش الأنانية، الذين يتسكّعون في حياتهم علىٰ مَبْدأ «كُلْ قرْصَك وادْخُل خُلْصَك»؛ مبدأ العُمي والصُّم عن مناظر الحياة الحقة وصواخبها.

ولا ريب أن رَبَّ هذا المبدأ الساقط لا يدري شيئاً عن الإنسانية، ولا عن الوطنية، ولا عن غيرها من الجوامع والروابط التي تجمع وتربط بين المشارب المتحدة، سواء كانت دينية أو شعبية، وهي المشارب التي تتزاحم عليها الأمم في دوائرها، وتبذل قصارى جهودها في تقويتها وتوسيعها.

فمبدأ «كُلْ قرْصَك وادْخُل خُلْصَك» مبدأ لا يذهب بربِّه بعيداً عن حياة بنات وَرْدَان، وعن حياة صراصير المزارع التي لا تدرك ممّا حولها شيئاً غير ما يحيط به إهابُها، ولا يهمها عدا ما يدخل في أفواهها ويخرج من أدبارها.

والمرء إذا انتحل هذا المذهب، فقد انتحل لُؤماً وضَعَةً، يجعلانه أُثْلولاً زائداً في جسم الهيئة الاجتماعية، ولا ينتفع به المجموع، ولا يستعيض منه ما يخسره له من دم الحياة وذراتها، مما يمده بها دائماً وأبداً ما دام حياً يرزق.

وصاحب هذا المبدأ ــ لا كثّر اللّه في المسلمين من أمثاله ــ شخص لا يفرح لفرح المسلمين، ولا يحزن لحزنهم، ولا يهمه شأن مواطنيه أهانُوا أو عزُّوا، فهو في عزلة عن العالم بقرصه وخُلصه، ولا يهمه من وقفة الفَلَك، ولا صعقة الصُّور، ولا هول المطَّلع، غير ما يتحسر عليه من ضياع وقته في سبيلٍ غير سبيل «قرصه وخُلصه».

* * *

وبعد؛ فمجلس الإصلاح الوطني قد قام بواجبه الوطني في الالتفات إلىٰ ما يقاسيه المجتمع من طغيان هذه العادات السَّافلة التي أخذت بخناق العائلات الحضرمية أخذاً وبيلاً، لا يدعها تنفلتُ منه إلا وقد تورّطت في غياهب الديون المظلمة، وواجهت الفقر المدْقع وجهاً لوجه، وودّعت ما تركه لها من التراث

مُورِّثوها وداعاً أبدياً في سبيل اقتراحاتٍ ضالّةٍ تفيضُ بها الأحلام الرقيقة فيضاً، فلا يتأثّم حينئذٍ من قبولها صغارُ العقول ولا كبارُها.

ولو لم ينصَعْ من قديمٍ رجالُ هذا القطر الحضرمي لمثل هذا الفضول من الترّهـات التي أتـت علىٰ جليل التراث ودقيقـه، ولو ساير الرشْدُ عقُولَ القوم فلاثوا بالتشدد تجـاه هذه العادات السافلة وتيارها، لكان حالُ قطْرِنا اليومَ هو غير هذه الحال، ولكانت السعادة ترفُل فيه بحللها الطيبة، ولكان أهلاً بأبنائه الذين شتتَتْ شمْلَهم الهجرةُ، واستهوتهم الغربة، وتركت ديارهم بَلاَقع ينعِقُ بها الغراب، وتنتابها البُوم.

ولكن ماذا يفيدنا من «لو» وقد حُم الأمر، وأصبح الوطن أمام أَمْرٍ واقع من نكَد البال، وسوء الحال، وخَطَر المآل؟

* * *

يقول المنطق: لا تمُدَّنَّ رجْليك إلا علىٰ قياس بساطك، ولا تثِبَنّ وثْبةً لا تقـوىٰ عليها رجلاك؛ ولكنّ أَشبـاهَ رجـالٍ من قومنا يحاولون أن يتناولوا من الكماليات؛ ويقتنوا من فُضُول العادات ما ليس في سَعَتهم، كلُّ ذلك مجاراةً لتلكـم الطبقـات التي «تسمح» لها ثروتهـا بالتوسع في مرافق الحياة، وتشبّهاً بأناس لا يستدينون دانقاً ولا يبيعونَ قيراطاً في سبيل المقتنيات.

أما أشْبـاه الرجـال، فتنتج لهم المرأة أبسطـة من الاقتـراحات لا يدرك آخرَها نظَرُهم، ولا تدفعهم إلىٰ وثبات في الترهات لا تقوىٰ عليها أرجلهم، ويتوغل بهم ضعْفُ إرادتهم في أحراشٍ مُوحِشَةٍ لا تتحمل السيرَ فيها ماليتُهم، فلا يلبثون أن يتجردوا من الرجولية والتفكير.

آراءٌ أَفِنةٌ لا يقبلها المنطق ولا يسوّغها الطبع، ولا تصادق عليها إلا أحلام العصافير!! يُحكىٰ أن عصفوراً علىٰ شجرة نظر إلىٰ راعٍ يسوق قطيعاً من الغنم،

وإذا بنَسْرٍ عظيم قد انقضّ علىٰ جَدْيٍ صغير منها، واختطفه بمخالبه إلىٰ الجو، فأُعْجب العصفور بذلك، وقال في نفسه: لمَ لا أسلك أنا هكذا مسلك، فإنه يـؤدي إلىٰ غُنمٍ كبير؟ ثم إنه خـرّ علىٰ خروف كبير ليختطفه، فنشِبت أظفـاره الصغيرة في صوفه الكثيف، وحاول الخلاص فلم يقْدِر، حتىٰ هرع الراعي إليه فقبض عليه وذبَحه.

* * *

نقـول: ولهذه العادات طغيـانٌ كطغيان الطوفـان، ولهـا امتدادٌ يتزايد تدريجيـاً، قد لا يشعر رهينها بتزايده إلا بعد أن ينقطع خط الرجعـة بينه وبين السلامة، والمرء كالنفس لا حد لشبعها ولا مطمع في إقناعها، فتنفيذ شيء من اقتراحاتها لا يكون لها إلا كالماء الملح في جوف الشخص الظامىء، يزداد به عطشاً ويلتهب فيه أواماً.

والمرأة غير ملومـة فيما تقتـرح؛ لأن نظـرها لا يسقط بعيداً عما دون أنفهـا، ولأنها تعتقـد في نفسها تأدية رسالة الفن إلىٰ أربابـه، ولأنها لم تكن لتحمل السيف مُسلَّطاً علىٰ أرقاب المنقذين، ولكن الملومين أولئك الأشخاص الذيـن يساوون المرأة في العقليـة وفي كل شيء، ويخالفونها في شَعَر الوجه وفي عضو التناسل! فهم أُناثىٰ، لا أقل ولا أكثر، غير أن لكلٍ منهم . . . . .

* * *

هؤلاء هم الذين نُكبت بهم حضرموتُ نكْبتَها المستمرة التي أوقفتها في هذا الموقـف الحاضـر، وهؤلاء هم الذين لا يزالـون يزُجّـونَ بأنفسهم ومَن علىٰ شاكلتهـم في مضائـقَ لا يلبثـون أن يرتطمـوا فيهـا ارتطامـاً تختلـف منه أضلاعهم.

وهؤلاء هم الذين يلَذُّ لهم اليوم من مرضاة المقترحات عليهم ما يُجرّعهم

الدمر العلقم غداً من مقتهنّ أنفسهن، وهؤلاء هم الذين سيتحملون على عواتقهم مسؤولية المَهْلكة الفادحة التي يقذفون بوطنهم ومواطنيهم في حضيضها طيشاً وسفاهاً.

***

وقد أجمع العلماء على مقْتِ هذه العادات السَّافلة، وتصدىٰ في كل ردحٍ من الزمان رجالٌ من ذوي الهمم القعساء لمكافحتها وقمعها، وكلما كوفح داءٌ من أدوائها الفتاكة انشقّ داء آخر مما لم يكن يخطر ببال المكافحين.

يقول الإمام عمر بن سقاف العلوي من رجال القرن الماضي: (إن العادات شجرةٌ خبيثة، سُقِيتْ بماء التكلف، وأثمرتِ البعد عن الأوطان).

وفي سنة ١٣٠٧ هـ عقد بتريم مجلسٌ عام ترأسه الإمام العلامة عيدروس ابن عمر الحبشي العلوي؛ فقرروا إيقاف العادات عند حدّ محدود، وأبطلوا الشيء الكثير من لوازمها في ذلك العهد؛ فكنت، وأنا إذ ذاك طفل، أشاهد النساء يجمعْنَ ملابسهنّ فينزعْنَ عنها ما يسمىٰ «بالتخزيم».

ثم مرت السنون، وتكررت الاجتماعات لهذا الغرض، وجاءت «جمعيةُ الحق» فلم تغفُل عن الاهتمام بهذه الكارثة، وأخيراً، قدِم السيد عبد الرحمن ابن شيخ الكاف العلوي من (جاوىٰ)، وألقىٰ في «نادي الشبيبة» محاضرة في الاقتصاد، وألمّ فيها بهذا الموضوع، ثم لم يلبث أن أصدر لائحة تحتوي علىٰ إبطال كثير من العادات الضارّة رفقاً بالعموم.

والآنَ وقد قام «مجلس الإصلاح» في سيؤون بمهمته، فإن الظروف القاهرة بهذه النواحي تهيب بأبطال الإصلاح والتفكير من رجال «جمعية الحق»، و«جمعية الأخوّة والمعاونة» وغيرهم من المصلحين أن يرحموا من لا يرحمُ نفسه، وأن يُنقذوا الوطن من نِيْر براثن الدمار، وأن يسُنُّوا لائحةً عامةً،

تريح كل الطبقات المتعبة مما تقاسيه من فتك هذه العادات السافلة، والله المستعان في كل حال.

«الإخاء»:

نشكر الكاتبَ علىٰ معالجته مثل هذا الموضوع الذي أخذ بالشيء الكثير من فكر الأُمة، وجرَّ عليها ويْلاتٍ ومصائبَ وآفات، ونرجو من حضرته أن يطالعنا كلَّ آنٍ بالمفيد من الشائق من أبحاثه، والناجح المجدي من نفَثات يراعه.

كما أنا نقدر لمجلس الإصلاح بسيؤون اهتمامه الكبيرَ وردعه هذا السيلَ الجارف لثروة الأمة، وصدَّه هذا التيارَ الذي أخذ يهددُنا في أخلاقنا الصحيحة، وشيَمِنا العربية الأصلية، وأملُنا وطيدٌ في أن تنبعث في تريمَ وغيرِها من بلدان هذا الوادي تلك الأصواتُ التي طالما دوّىٰ رنينُها في آذاننا، فسبّحنا لها وهلّلنا، فتعاودَ الكرّة في إيجاد الحل العملي الأخير لهذه الأزمة المزمنة، ونشترك جميعاً في محاربة هذا الداء المتفشّي في مجتمعنا.

علىٰ أنه من الخير للناس لو وفِّقوا لتفهم حكمة الله جل وعلا في خلق العباد متفاوتينَ في المواهب والحظوظ التي منحهم إياها لأسرار قضتها حكمته الأزلية بعد أن سنَّ لهم النُّظمَ التي تكفُلُ لكل فريق منهم حياتَه المعيشية، وأوضاعه الخاصة حتىٰ يسيروا سيراً منتظماً في حدود العقل واللياقة، غيرَ متأثّرين بعادات وتقاليد ما أنزل الله بها من سلطان.

* * *

# لا رُحْنا ولا جينا[١]!

منذ نحو ٣٠ سنة بدأت الدعاية الوطنية الحضرمية تتبوّأ منزلاً بين أقلام الكتّاب الحضارمة بالمهجر الجاوي، وبدأ المفكرون منهم يلفتون الأنظار إلىٰ ما علىٰ الناس من واجبات نحو وطنهم، بعد أن كانت الدهماءُ مِنّا ــ معشرَ الحضارمة ــ لا تحفظ من الوطنية إلا حديثَ «حبّ الوَطَنِ منَ الإيمَان»[٢]، الحديث الذي لا تعلَم من مدلوله شيئاً ما عدا الحنين إلىٰ مسقط الرأس فحَسْب، من دون أن يدور لها بخَلَدٍ ما أن تؤديَ ما تقتضيه المحبةُ من السعي في ترفيه المحبوب وإسْعاده.

ولعل أولَ منتوج أوْرَده الخاطرُ الحضرمي في توجيه الأفكار إلىٰ الإصلاح الوطني، هي: رسالةُ السيد العلامة حسن بن علوي بن شهاب العلوي[٣] ــ تغمده الله برحمته ــ التي أسماها «نِحْلةَ الوطَنَ ومَن بهِ قطَن»، وكانت التسجيعات حينذاك متغلّبة علىٰ أسماء المؤلفات والرسَائل المبتكرة.

وما انتشرت هذه النبذة إلا وانتشر معها دويٌّ عظيم أصم الآذان، ولم تقابَل من الخاصة والعامة إلا بمزيد النفور والاشمئزاز، وعزّ علىٰ الأوسَاط

---

(١) مجلة «الإخاء»، السنة الثانية، العدد الثاني، صفر ١٣٥٨هـ، أبريل ١٩٣٩م، (ص: ١١).

(٢) ليس بحديث. «كشف الخفا» (١ : ٤١٣).

(٣) توفي بتريم سنة ١٣٣٣هـ.

المتعلمة وعلىٰ أرستقراطيِّي النفوذ الديني أن يقال مثل هذا العتب اللاذع علىٰ الحضارمة، وفيهم رجال العلم والدين والاجتماع، ممن لايُستهان بهم!

فكان ما كان مما لستُ أَذكرُهُ فظُنَّ خيراً ولا تسأَلْ عنِ الخَبَرِ

وتوالت بعدئذٍ أفكار المفكرين وأقلام الكاتبين في النظر إلىٰ هذه الناحية، ناحية الجهل بالوطنية، وبقي موضع الضعْف في النفسية الحضرمية، وبؤرة الجمود والإحباط في الشعب، والعلة التي لا علاج لها إلا العلمُ بها.

ولكنا نحن ــ الحضارمة ــ قوم لم نزل راسخين كما كنا في موضعنا قبل ٣٠ سنة، لا يتعدىٰ ذكرُ الوطنية فينا أذلاقَ اليراع ولا أطراف الألسن، ولم تحتلَّ لها بعدُ في قلوب شعبنا موضعاً يحملهم علىٰ أداء الواجبات المحترمة لهذا الوطن المنكود الحظ، والمصاب بإعراض أهله عنه، وغفلتهم عما يحيط به من الأخطار الاجتماعية والسياسية، غفلةً تطوّح ــ لا قدّر اللّه ــ بوادينا المحبوب من حيث يشعر ومن حيث لا يشعر، إلىٰ أحضان غير شافية ولا دافية. وإنما هيَ أحضانُ عقوبةٍ تفرضها السنة الإلهية علىٰ كل من لم يراعِ الأوضاع العمرانية الطبيعية لهذه المعركة الحيوية، التي تقضي ببقاء الأصلح وذهاب الزَّبد جُفاءً.

* * *

وفي سنة ١٣٣٨ هـ، أي منذ عشرين سنة تقريباً، نشرت جريدة «الإقبال» بسورابايا مقالاً لنا كنا كتبناه في الموضوع نفسه ويخصّنا[1] نقْلُه اليوم عن «الإقبال» ونشْرُه هنا تَفكِهةً للقراء بهذا الأثر التاريخي، وإيذاناً لهم بأننا ــ معشر الحضارمة ــ في طول تلك المدة، لم نزاول مركزنا الاجتماعي

---

(١) رسم الكلمة في الأصل غير واضح، فقدرناه كما ترىٰ.

ذاك، وأننا من دون الناس الذاهبين في التطوّر والجَائين فيه، لم نزل كما كنا: «لا رحنا ولا جينا».

وهاك ما نشرته لنا جريدة «الإقبال» الصادرة ليلة السبت ١٥ القعدة سنة ١٣٣٨هـ في مقال افتتاحي: «واجباتنا نحو حضرموت»:

(لا يستبعدنَّ القراءُ الكرام أنه يوجد بين ظهرانيْنا اليوم منا ــ معشر الحضارمة ــ من لا يدري بأن عليه واجباً، أو بالحريّ واجباتٍ كثيرةً، نحو وطنه المحبوب، وأنّ هناك حقوقاً غيرَ ما يعرفه من مراسم العبادات وأواصر القرابات تصيح بملء صوتها؛ فتناشده اللّهَ والبقاعَ التي بهَا كان مسقِط رأسه ومناط تميمته وموقع شأنه ومقر صباه.

لا زلنا نحن والشعور الوطني يُنكرنا وننكره، والجامعة الحضرمية تجهلنا ونجهلها؛ وحب الوطن ما بَرحنا نحسَبُه الهُيام بتلك الشعاب والأودية، والحنينَ إلىٰ تلك المعاهد والربوع، من دون أن نسعىٰ إلىٰ ما يجلب لها العمران، ويزيح عنها الخسران، ويدرّ عليها ضروعَ الخيرات، ويجعل أهلها يذوقون كيف طعم السعادة الحيوية، والمعيشة الرضية، ويتنعّمون كما يتنعم بنو البلاد الأخرىٰ الذين سعدت أوطانُهم بأغنياءَ يعرفون الحقوق، ويؤدون واجب الوطن، ويقومون بما يرفع عنه البأس ويكشفُ عنه الضر.

ذلك هو الحبُّ الصادقُ والوطنية الحقّة؛ لا التشدّقُ ــ فقط ــ في المجالس، وكنز الأموال في المَصَارف، واقتناء الرياش الفاخرة، والتلذذ بالنساء علىٰ الفُرُش، والتفاخر بالجوّالات، ونسيان الحقوق، وارتكاب العقوق.

وحُسبان الغَني أن السعادة قد أدْلت إليه، والحيَاة بأبهىٰ مناضرها بزغَت عليه، وهو لا يدري أنه الممقوتُ عند اللّه، المبغوضُ عند الناس، المارقُ عن الوطنية المقدسة، المحرومُ من ثمرة ما كدَحَتْه يمينه وعرقَ فيه جبينُه، وأنه

المسؤولُ ــ طال الزمن أم قصُر ــ عن واجباته، المناقَشُ في حسَاباته.

فإن هو ممن زلّت قدمه، وتعظَّم ندمه، كان من أولئك الذين تُكوىٰ بما كنزوا جباهُهم وجنوبهم، كما ورد في الكتاب المقدس، الذي يجدر بنا أن نصُون آياته الكريمة عن الابتذال، ونُجِلَّها عن التسطير في الجرائد المتداولة التي يستلمها المسلم والذميّ، والبرّ والفاجر، فتُرىٰ مراراً في الرفوف، وتُخْبَأُ أحياناً تحت الحُصُر، وتُنبذ تارةً تحت السّرُر، وتُقذف طَوراً مع القمامات، وتداس آناً بالأقدام، وربما انتهىٰ بها سوء الحال إلىٰ أن تستخدم للاستنجاء! ثم تقذف فوق....!

لِنعُد إلىٰ موضوعنا منذ اليوم، فإن بلادنا حضرموت تجْأَرُ إلىٰ اللّه، وتشتكي بنا مما تقاسيه من عقوقنا وقطعنا إياها، وهي هي ملجأ هاربنا، مأوىٰ مجرمنا، وقرارة أحبابنا، ومُنتهىٰ انتسابنا، وأمّنا الشفيقة التي تحضُنُ الألوف من بني جنسنا وذوي رحِمِنا.

كيف ساغ لنا أن نُتْحِفَ غيرَنا بخيراتنا، ونؤثره بثروتنا، ونتركَ وطَنَنا يهاجمه الفقر، ويتهدده الخراب، ويتآكله الظلم، وهل يمشُطُ العروسَ إلاّ أهلُها، ويصلح البلاد إلا بنُوها؟

عجباً لنا! لماذا لا نخصص طرفاً من ثروتنا المكنوزة في البنوك لإصلاح أمّنا حضرموت؛ فنؤسس بها الشركات، ونغرس بها النخيل، ونحرث الأرض، ونحفر الآبار، ونخُدّ الترع، ونقيم السدود، حتىٰ لا تأتي برهةٌ من الزمن إلا وقد استفاضتِ الخيراتُ، وتراخَت الأسعار، وكثُرَ الواردون، وقلّ النازحون، وأصبحت البلادُ آهلة بأهلها، ملأىٰ بخيرها، راتعةً في لجاج السعادة، رافِلةً في ملابس السرور والهناء.

نِعْمت الأماني التي نتلذّذ بذكرها، والرقي الذي نُهَمْهِمُ بتلاوته، لو كان

يؤثِّر علىٰ أدمغة أغنيائنا الجامدة، أو يروِّع عفريت البخل المحتوي علىٰ تلك الخزائن المالية، التي لا تغني صاحبها فتيلاً، ولا تهديه سبيلاً، يوم تكتنفه الحيرة، وتضمه الحفرة، وتعتريه الحسرة.

لنرفعِ القلم أولاً، ربما عُدْنا إلىٰ الموضوع ثانياً، مؤمّلين من مفكِّري وادينا العزيز أن يسَارعوا إلىٰ تأليف لجنة تعميرية، تبحث في كيفية تعمير الوطن وإصلاحه، وليبدأوا بالعمل، فإن الشوطَ بطينٌ[1] والعمْرَ قصير، والفُرَصَ لا تُنتهَزُ كل حين.

محمد بن هاشم)

* * *

هذا ما نشرناه قبل عشرين سنة تقريباً، وقد تكررت الكتابة بعد ذلك في الموضوع نفْسِه منّا ومن غيرنا، ولكن وادينا نحن ــ الحضارمة ــ وادٍ شاسعَ الأطراف، مترامي الأكناف، يتلقىٰ الصيحة تلو الصيحة فتتلاشىٰ فيه الصيحات، وتذهب بها موجَاتُ الأثير كل مذهب، من دون أن ينجُزَ منها شيء، واللّه ولي التوفيق.

* * *

(١) أي: بعيد. «القاموس المحيط» (بطن). «الناشر».

# قمّة إيفِرِسْتْ[١]

## (١)



أنت تعلم أنّ علىٰ طول الجانب الشمالي الشرقي من بلاد الهند تمتد جبال هملايا الشاهقة التي هي أعلىٰ جبال الدنيا. وتعطينا كلمة «هملايا» معنىٰ المغطّاة بالثلج.

ثم إن أعلىٰ قمم هذه الجبال الرهيبة هي قمّة «إيفرست» التي يبلغ ارتفاعُها خمسَةَ أميالٍ ونصفاً! وليست الخمسَةُ أميالٍ والنصفُ بالشيء اليسير، فإنها تكاد تعادل المسافة بين (تريم) و(مسيلة آل شيخ)؛ فتصور أنت أنْ لو رُفعْت هذه المسَافة صُعُداً لظَهَرَ لك علوُّها الهائل.

وكم طمِعَ الباحثون أن يصلوا إلىٰ رأس هذه القمة، غير أنهم يعودون خاسئين آيسين لموانعَ وأخطارٍ متينة تعترضهم، أهمها: البرد القارص؛ فإن الهواء شديد البرودة في هذه الجبال، وأعاليها كلُّها مكللة بالثلج، ولهذا ترىٰ السواح هناك يتدثّرون بملابسَ غليظةٍ مترادفةٍ تكسو جميع بدنهم حتىٰ كفوفَهُم وأقدامَهم ووجوهَهم ما عدا العينين، وإن الاهتمام بتغطية الأيدي والأرجل والآذان مهمٌّ جداً، فإنها إذا بقيت مكشوفةً قد تصقَعُ وتتجمد، وإذا أصيب

---

(١) عرّبها الكاتب عن الإنكليزية. مجلة «الإخاء»، السنة الثانية، العدد الأول، محرم ١٣٥٨هـ، مارس ١٩٣٩م، (ص: ١٢).

بعض الأعضاء بالصقْع والتجمُّد فإنه يسبب لصاحبه ألماً شديداً، وربما عُدِمتْ فائدته مطلقاً واحتيج إلىٰ بتره.

أما قممُ هذه الجبال فالبردُ فيها لا يطاق، والماء متجمدٌ فيها دائماً؛ فإذا أراد السّواحُ أن يشربوا ماء فإنهم يأخذون القطعة من الجليد ويضعونها في القدر يغلونها علىٰ النار حتىٰ تستحيل ماءً صالحاً للشرب والطبخ، غير أنه لا يوجد هناك شجر ولا حطبٌ للوقود، ولهذا يلزم علىٰ السواح أن يستصحبوا معهم زيتاً للوقود، ولا بدّ لهم من أشخاص معهم يحملون لهم أمتعتهم وأقواتهم، وهؤلاء الأشخاصُ يلزم لهم أيضاً قوتُهم وضرورياتُهم.

* * *

وهناك أخطار أخرىٰ تكتنف السواح في تلك الجبال، فإن الواحدَ منهم إذا جلس ليستريح قليلاً صَعُب عليه القيام بعد ذلك، ولهذ يكون من الخطر العظيم أن ينام المرء هنالك في الثلج، فإنه حينئذٍ يظل نائماً فلا ينتبه أبداً، بل يموت أثناء نومه؛ فمن يضطجع لينام فإنّما يضطجع للموت.

والثلج المنبسط علىٰ الجبل خطَرٌ كبير علىٰ السواح؛ لأن جوانب الجبل لا يخلو من هُوّات عميقة ومزالق يسترها الثلج؛ فإذا وقع أحدهم في حفرة منها فإنه يظل فيها حتىٰ ينقذه غيره، وإلاّ فإنه لا يصعد منها أبداً.

والثلوج المتراكمة علىٰ قمم الجبل كثيراً ما يتدحرج منها صخور ضخمة إلىٰ السفح فتأتي علىٰ كل ما هو في طريقها فتسحقه سحقاً أو تدحرجه معها.

* * *

ولعلك قد قرأت أن كثيراً من السواح يخطف نظرهم لمَعانُ الثلج، فيعودون مكفوفين يقودهم أصحابهم، فإن كان أحدهم بعيداً عن أصحابه فإنه يضل طريقَه ويسقُط في هاوية.

وقد حاول رجالٌ مرّتين أن يصلوا إلىٰ رأس قمة إيفرست، وذلك عام ١٩٢٢م، ثم في عام ١٩٢٤م.

أما في سنة ١٩٢١م؛ فقد جاء سبعة من الإنقليز إلىٰ قمة إيفرست، لا لمحاولة الصعود إلىٰ الرأس، ولكن لينظروا فقط أيُّ طريقٍ يلزَمُ سلوكُها للتسلق، وأي وقت أنسَبُ لذلك؟ لأنك إذا رحلت أوّلَ السنة تجد البرْدَ في أشَدِّ قوته، وإن جئْتَ آخر السنة تجدُ الأمطارَ منهمرةً بكثرة، وبها يكونُ الجبل كثيْرَ الأخطار.

وبعد هؤلاء السبعة بسنة جاء أشخاص آخرون من الإنقليز أيضاً، وذلك سنة ١٩٢٢م، وحاولوا الوصول إلىٰ رأس القمة ومعهم كل ما يلزم من خيامٍ ومَرَافِقَ، فتسلقوا الجبل بكل حذر وبكل صعوبة، حتىٰ ارتفعوا خمسة أميال، ولم يستطيعوا الزيادة عليها، بعد محاولاتٍ ثلاثٍ بذلوا فيها جهد المستميتين[1]، ولكنهم في المحاولة الثالثة دهمتْهم صخرةٌ عظيمة من الثلج، فدفعتهم كلَّهم عن طريقهم وقتلت منهم سبعة، وسلِمَ الباقون بعد أن دحرجتهم يميناً وشمالاً، فلم يسعهم إلا أن يعودوا من حيث أتوا.

وفي سنة ١٩٢٤م وصل هؤلاء الثلاثةُ أنفسُهم ومعهم غيرهم أيضاً يحاولون الصعود إلىٰ قمة إيفرست، وعندما شرعوا في التسلق فاجأتهم عاصفة عظيمة غيّرتْ عليهم الطقْسَ وحولته إلىٰ برْدٍ مرعب، ودخل الجبَلُ في حالة مهولة: الثلج يتساقط، وصخورُه تتدحرج، وحصباء الثلج ترشح في كل بقعة بواسطة الزوبعة، فلم يستطع الرواد أن يخْطُوا في طريقهم خطوةً واحدةً من شدة الريح، فاضطروا إلىٰ العودة والالتجاء إلىٰ خيامهم.

---

(١) وكان المتبقي لهم لوصول القمة نصفَ ميل فقط، لأنّ ارتفاع القمة عن سطح البحر هو ٥,٥ ميل كما تقدم أول المقال.

# قمَّة إيفِرِسْت[١]

## (٢)

واستمرت العاصفة تهُبّ يومين، بينما الرواد قابعون في خيامهم منتظرين سكونها. ثم شرع رجالٌ منهم يستأنفون الصعود للمرة الثانية عندما رأوا الجو هادئاً والنهار مناسباً، ولكن الحال ما لبث أن تنكّر آخر النهار، بدأ الثلج يتساقطُ بشدة، والريح تعيد الكرة بهجوم أشد من الأول، فاضطروا إلىٰ العودة في خيامهم.

وبعد أن هدأت العاصفة صمم منهم اثنان فقط علىٰ الصعود للمرة الثالثة، أحدهما يدعىٰ (مِلُّلوري) والثاني (أرْفَاين)، وقد صعد الاثنان يحاولان الوصول إلىٰ قمة إيفرست، وكانت السحبُ مغطيةً قمم ذلك الجبلِ الشامخ في غالب الأوقات، وقد تبدو القمةُ إذا كان الجوّ صَافياً، فترىٰ بيضاء ناصعة ولكن ذلك لا يظهر إلا نادراً.

وصعد (ملّلوري) و (أرفاين) وبقي الآخرون منتظرين، ويراقبون عن كثب. وقد مكثوا وقتاً من دون أن يروا أو يسمعوا عنهما شيئاً جديداً.

---

(١) مجلة «الإخاء»، السنة الثانية، العدد الثالث، ربيع الأول ١٣٥٨هـ، مايو ١٩٣٩م؛ (ص: ١٣).

وعـاد رجـالٌ من الخـدم الذين توجهـوا معهما يحملـون منهم إشارة مضمونها: (نحن سنكون عما قليل لدىٰ القمة).

وشخَصَ القـوم بأبصـارهم نحو القمة، ولكـن السحـب الكثيفة كانت تحجبها عنهم فلم يستطيعوا أن يروا شيئاً.

وبعدَ هُنيْهة انفرجت فرجَةٌ في السَّحـاب، فشوهدَتِ القمةُ علىٰ ارتفاعٍ شاسـع وهي بيضاءُ ناصعـة، وكان بقربهـا نقطتان سوداوان في غاية الصغر، تتحركان علىٰ الثلج الأبيض اللامع، فأخذ الرجالُ الماكثون في الخيام يراقبون النقطتين المتحركتين، اللتين ليس هما سوى (مللوري) و(أرفاين) يتقدمان نحو القمة شيئاً فشيئاً، ولكـن السحُبَ الكثيفـة التأمَتْ، فحجبتِ القمةَ والنقطتين السوداوين، ولم يعُدِ القومُ يرَون.

***

وأقبـل الليلُ وأدبر، وجاء النهارُ ووَلّىٰ ولكنّ (مللوري) و(أرفاين) لم يعـودا، وحيـث أن هناك صخوراً عظيمـة حوالي القمـة، أفلا يمكن أن يكون الرجلان وقعا من إحدىٰ هذه الصخور فذهبا ضحية الاكتشاف؟ أو أنهما توجّها نحو إحداها ثم لم يستطيعا بعد ذلك أن يتقدما ولا أن يعودا؟ وأنهما وصلا إلىٰ الجبـل وانثنيا راجعَيْن، فأدركهما الليل في الطريـق وغلبهما النوم علىٰ الثلج طيلة الليل فلم يعودا إلىٰ اليقظة مرة أخرىٰ؟!

كل هذه افتراضات فقط. وعلىٰ هذا لا يعرف أحد إذا كان قد وصلا إلىٰ هذه القمـة الرهيبة. أما (مللـوري) و(أرفاين) فلا يستطيـع أحـد [القولَ] في شأنهما بأنهما وصلا إلىٰ القمة أم انتهيا إلىٰ نقطة قريبة منها لم يبلـغ إليها أحد قبلهما. وإنما الذي نستطيـع أن نقوله: هو أنه لم يصل أحدٌ إلىٰ قمـة إيفرست وعـاد إلينا سالماً.

ومع ذلك؛ فالرواية لم تنتهِ بعد، لأن طرفها النهائي لم يزل مقبلاً، لأن أناساً آخرين يحاولون الوصول ويُعْمِلُون تجاربهم، وستكون النهايةُ هي أن يتغلب رجالٌ على قمة أعلىٰ جبالِ الدنيا، يتعدون ذروتها، ويعودون إلينا بأخبار رحلتهم.



# تأبينُ
## الملك غازي بن فيصل بن الحسين الهاشمي[١]



«أيها الكرام،

إن الحياة الدنيا ــ عصمَكم اللّه ــ لم تزل ولن تزال ميداناً تتدهور فيه رواسخ الآمال، ، ولم تزل ولن تزال سَرَاباً بِقِيْعةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمآنُ ماءً، حتَىٰ إذا جاءَهُ لم يَجِدْهُ شيئاً.

والموت ــ وقاكم اللّه ــ وإن يكُ نَقّاداً، علىٰ كفِّه جواهرُ يختارُ منها الجِيَاد، كما قال الشاعر، إلاّ أنه يعمد إلىٰ الآمال الوطيدة التي يبني المرء عليها العلالي والقصور فيحطّمها تحطيماً، ويأتي إلىٰ الخطط التي دبّرها بنو الإنسان في هذه الحياة فيصدّها عن سبيلها صدّاً.

وابنُ آدم المسكينُ لا يدري ماذا يراد به؟ ولا إلىٰ أين ينتهي به الموقف؟ فهو يتسكّع في غياهبَ من الغيب حالِكةِ السحُب، غليظةِ الحجُب، مستفيئاً فيها بذُبالةٍ ضئيلة من الأمل تمدّها قطراتٌ من زيت الوهم، لولاهما لأحجم عن السير، ولظل جامداً مكانه، لا يدفعه دافعٌ، ولا يجذِبُه جاذبٌ.

---

(١) مجلة «الإخاء»، السنة الثانية، العدد الثاني، صفر ١٣٥٨هـ، أبريل ١٩٣٩م؛ (ص: ٤).

يا ليتنا وقد كُفَّت بصائِرُنا عن اختراق الغد وما يجري في الغد، لم يُتَحْ لنا أن نَشغَلَ أفكارنا به، ونعد تصرفاتنا له، ونعلّق آمالنا عليه، ونتوقَّعَ خيراتنا منه، ونضع ثقتنا فيه، ونفوّض نتائج أعمالنا إليه؛ فإن الحيوان الأعجم لم يكن أسعد حالاً منا إلاّ مع وقوفه عند حد الحاضر وغفلتِه عمّا وراء ذلك، ولكن أنّىٰ للإنسان أن ينال هذا المُتمَنّىٰ، وتلك الأمانةُ قد عُرِضَت علىٰ السمٰوات والأرض والجبال فأَبَينَ أن يَحْمِلْنَها وأشْفَقْنَ منها، وحملها هو بالمعنىٰ الذي أراده اللّه جل وعلا. والأمانة علىٰ كل حالٍ لفظٌ عظيمُ المدلول، رهيب المعنىٰ؛ فهي تحتم علىٰ حاملها أن يهتم بغده، ويعمل لمستقبله، إذ يؤدي واجبات الأمانة بكل دقة وعناية.

* * *

وبعد؛ فقد مات غازي بن فيصل بن الحسين بن علي، الفاطمي الهاشمي، فماتت معه آمالٌ عظمىٰ كانت تجيش بها جوانحُ العروبة، وتتأملُها رجالاتُ الإسلام، ويشيِّد عليها العراقُ المحروس بناياتٍ شامخةً من الإصلاحات العظيمة العامة التي ستعيد للعروبة مجدَها الباذخَ وتأريخها السامي.

لم يكن عهدُ المغفور له منذ أقْتَعد أريكة المُلك ببعيد، ولم يكن الناس يومئذٍ يتوقعون منه أن يثِبَ هكذا بخطواته الإصلاحية وثوباً متداركاً يُنبىء عن بروزٍ عظيم في الشخصية المَلَكية لا يُبارىٰ، وعقلٍ كبير لا يُجارىٰ، ولكنّ نبوغَ الفتىٰ الفطري، وثقافته العليا، يدفعانهِ إلىٰ آراءٍ وأعمالٍ أدهشت المحيطين به من رجال الدولة وأعيان الأمة. وما علموا أنه إنما يقطع الحياة وَثْباً كما كان يقطع الإصلاحاتِ وثباً، فكأنه كان يعلم مدىٰ أجلِه المحدود! فهو يحرص كل الحرص علىٰ اغتنام فرصة العمر في تنفيذ ما يضمره من المشاريع الإصلاحية.

ولقد كـان غازي رحمه اللّه عربيـاً في نزعته قبـل كل شيء، وله نحو العروبة وجامعتها طموحٌ عظيم واهتمام خاصٌ سَرىٰ ــ في الحكـومة العراقية وفي الشعـب العراقي ــ روحُه سريانـاً تجلّىٰ بوضوح في الدوائـر الرسميـة والجرائد الشعبية.

ولم يكن المغفور له متسوِّراً علىٰ هذا الطموح الشريف، أو متطفِّلاً علىٰ هذه النزعة الطاهرة، فهو مع ما يراه من الجدارة التامة بهذا المبدأ المقدّس، وما يشـاهده من الظـروف المحيطة المقتضية لذلك؛ فقد كان هذا جارياً في عروقِـه، متحدِّراً إليه بالوراثة اللازمـة من أبيـه وجده اللذين عاشا علىٰ هذه الخطة وماتَا عليها.

والذي لا ريب فيه أن سلوك غازي نحو العروبة وحَدَبَه عليها لم يكونا إلاّ سلوكاً متجهاً، وحَدَباً حقيقياً وحقياً، يظْهِر منهما رغبته الشديدةَ في رفع الأمة العربية إلىٰ المستوىٰ الذي ترتفع فيه الأمم الراقية، وغيرَ مُصَانِع ولا مُجامِل في سبيل ذلك، ولا مأخوذاً بلومة لائِم، سواءً كان من الأَسَد صاحب الجلالة، أو النَّمِرِ صاحب العظمة، أو أضرابهما.

خدم الجامعة العربيـة، ونشّط أبناءها إلىٰ ورود موارد العلم، ومناهل الثقافة ببلاده، ولم يُتبع ذلك بمنّ ولا أذىٰ، ولم ينتحل لنفسه «ملِكَ العرب»، ولا «خليفـة الإسـلام»، ولا غيـرَ ذلك من الألقاب الضخمـة؛ بل ظل عاملاً متواضعاً يسعىٰ إلىٰ شأنٍ رفيع، ويرمي إلىٰ غايةٍ حميدة، قطعَـهُ دونها الأَجَلُ المحتوم الذي لا مناص منه.

* * *

ولا جَرَم أنّ المصـاب بفقده لَجليلٌ لدىٰ جميع الناطقين بالضاد، وهو ــ لا مَحالةَ ــ عند إخواننـا العراقيين أجَلُّ وأعظم، فنسأل اللّه تعالىٰ أن يلهم

الجميع الصبر، ويخفّف عنهم ألم الكارثة، وللناس في خلَفِه الصالح خيرُ سَلْوىٰ وأحسن عزاء.

والمقام في هذه الوقْفة القصيرة لا يحتمل الإلمامَ بكل منقبة من مناقب فقيد العروبة الراحل؛ فلْنَكْتَفِ بهذه الكلمة، امتثالاً لإشارة «جمعية الأخوة والمعاونة»، واستغناءً بما سيُفيض فيه غيرُنا من الخطباء المصْقَعين الذين لعلهم أوسَعُ منّا اطلاعاً علىٰ خصائص المغفور له ومزاياه؛ فنسأل اللّه تعالىٰ أن يتغمده بفضله وأن يَبُلَّ ضريحه بوابل رحمته.

* * *

# داءُ الْغَفْلةِ[١]



. . . والغفلة، وإن تكُ داءً سيىءَ الأثر في المجتمع، وقاضياً بمفاجأة الأخطار والطوارىء من دون سَابق إحسَاسٍ بهَا أو استعدادٍ لدفعها، إلاّ أن الغفلة من الجهة الأخرىٰ هي سُلوانٌ مستمر ومؤنسٌ مُلهِي يذْهَب بصَاحبه بعيداً عن المشاغل والتفكير في المنغِّصات، التي تذهب بلذة حيَاته وتزعزع عليه راحة نفسه، وهل كان أشْأمَ علىٰ الإنسان دون باقي الأنواع الحيوانية من شعوره بنفسه، وتنبهه إلىٰ وجوده، وتفكيره فيما يحيط به، وما يستقبله وما يتهدّده من نوازل الحياة ومفاجآتها؟ فهو لا يبرح حَذِراً يقظاً، ومكافحاً مستمراً.

أما المتلفع بالغفلة من الناس، فقد أراح نفسه من حيث يتعبُ بنو الإنسان، وسدل علىٰ تفكيره حجاباً كثيفاً استسلم به إلىٰ كل ما لعلَّ الحِدْثانَ يطْرُقُه به من خير أو شر.

وبعبارة أخرىٰ: لقد جهل بهذا الحجاب الكثيف ما أزاغ ألباب البشر وأرعد فرائصهم، فعاش وهو سليمٌ من كل هذا، حتىٰ إذا مَا باغتته الكارثة، وَحَلّت به القارعة، فإما خنعَ لها خنوعَ النذْلِ الساقط اللئيم، وأما اضطرب لها اضطراب المذبوح، وبقي يعاني بها من التألّم والتذمُّر مَا لا يغني ولا يفيد.

---

(١) مجلة «الإخاء»، السنة الثانية، العدد الثالث، ربيع الأول ١٣٥٨هـ، مايو ١٩٣٩م؛ (ص: ١٠).

وشعْبُنا نحن ــ معشَرَ الحضارمة ــ هو شعبٌ طالما ظلت الغفلة رِدْءاً له من كل ما يوجب قلقَ الشعوب الحسّاسة وتخوُّفَهم، وطالما أخذت هي بناصية كل فـرد من أفراده، فلم تدع له مجالاً للتفكيـر ولا للعمل إلا فيما يتعلق ببنية هيكله الجسمي فحسب؛ ولطالما ظل ــ ولم يزل حتىٰ الآن ــ غيْرَ حاسبٍ لما عسىٰ أن تأتي به الأيام لوطنه من خيرٍ أو شر، وَسعادةٍ أو شقاء، ما دام المنوالُ الذي ينسـج عليه جسْمَه مضمونةً سَلامتُه من كـل ضرر، ومَا يدريه لعلّ ذلك المنوال الـذي جعله همَّه الوحيدَ يتدهور يوماً مَّا إذا ما غُلب الشعبُ والوطنُ علىٰ أمرهما اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً.

* * *

إننا ــ معشر الحضارمة ــ نفرح ونمرح، ويهزأ بعضُنا ببعض، ويسْخر بعضنـا من بعض، غافلينَ عن أنّ لنا مصيراً سنصيـر إليـه مصيراً ويصير إليه وطننا، وإن هذا المصيرَ ليس هو إلا نتيجةً من نتائج سعْيِنا اليوم، أو مغَبَّةً من مغبّـات إهمالنا، وإننا أمةٌ ــ إن صـحّ إطـلاق هذا اللفـظ علينا ــ لها أذواقها وعاداتها ومشاربها واجتماعياتها، ومقوّماتها، وحريتها في شعائرها وأحكامها، وإنهـا إذا لم تحتفـظ بهذه المميزات فقد ذهـب خيْرُهـا، واضمحـلّ أمرُها، وتلاشت قوميتُها، ودخلت في خبر «كان»، كما يقول سَادتنا النحاة.

ولقد كان يسوؤنا ويؤلمنا ما كنا نسمعه من عزم تركيا سَابقاً علىٰ «تتريك العـرب»، والآن يؤلمنا مَا يصل إلينا من «تطْليـن» الطرابُلْسييـن والبنغازيين، و«تَفرْنُس» الجزائريين والتونسيين، بل إننا نتألم من ذلك.

لكنا لسنا بغالينَ ولا مبالغين إذا قلنا: إننا نحن ــ الحضارمة ــ من أسْرعِ الطوائف العربية وغيرِ العربية إلىٰ نبْذِ المميّزات القومية، وأوسَعها انطلاقاً إلىٰ اعتناق التقاليد الأجنبية، إذا نحن وجَدْنا من بهرج الدعاية الأوروبية إلىٰ ذلك

ما يجِدُه غيرُنا من الشعوب المغلوبة علىٰ أمرها، وترىٰ في المتعلمين منّا بتركيا وأوروبا، وفي أبنائنا مواليد أندونيسيا ــ من دون أبناء الصينيين وغيرهم من أبناء الجاليات الأخرىٰ المولودة بتلك البلاد ــ في ذلك دليلاً علىٰ ما قلناه، من أن الانسلاخ من قوميتنا لم يكُ بالشيء البعيد عنا، ما دمنا قابعين في زوايا الغفلة، غير آخذين بالحِيطة، ولا متنبّهين إلىٰ ما يقبل به المَلَوانِ من الأخطار التي تتهدد فينا القومية والحريّة والدين معاً.

لا جرَمَ أننا إذا بقينا هكذا نغدُو ونروح إلىٰ منتدياتنا، عاكفين علىٰ بطالتنا وعلىٰ أشغالنا الجزئية الخاصة، غيرَ آبهين بما يحِيْق بوطننا وبنشْئنا القادم من التطورات الصالحة والطالحة، ولا عَاملين علىٰ صدّ التيارات العنيفة الآتية نحونا، فإنّ ما هو معنا من التراث النفيس الصالح سيذهب ضحيّةَ الغفْلةِ والجمود، اللَّذَين ضربا في الوقت الحاضر علىٰ الآذان، وأخذا بالخناق، وجعلانا نرتَعُ في مأمنٍ ممّا تمكر به حوادث الزمان، ويفجعُ به تنازع البقاء؛ فلا رحم اللّه الغفلة والجمود، فقد أذهلانا علىٰ التعاضد في المصالح الوطنية، وألهيانا عن الدفاع عن الكيان القومي، فنحن نحن، لا نؤسِّس حزباً، ولا ننكر منكراً، ولا نرفع صوتاً بشكر محْسنٍ ولا بإساءة مسيء، ولا لتنشيط مصلح، ولا لردْع مستبدّ.

* * *

إن ارتباط المسببات بالأسباب هو نبراسٌ قوي النور، جعلَتْه الألطافُ الإلهية لبني الإنسَان يستعينون به ــ إذ لم تحجبْهم الغفلة ــ علىٰ مطالعةِ ما يتمخّض به الغدُ، فيتعرضون به لما يفيدهم، ويدرأون به عنهم ما يضرهم؛ لأن المفاجأة لا تكون إلا وليدةَ الغفلة، ونتيجة الإهمال.

وها نحن أولاء نرىٰ في وطننا زهْراً باسماً بدأت تتفتح أكْمامه، وجوّاً

مكفهِرّاً أخذ ينتشر غمامه، وسحائبَ دُكْناً آخذٌ بعضها برقاب بعض، ونرىٰ بروقاً ورعوداً وصواعق تكاد تشقُّ الوادي شقاً.

أفلم يأْنِ لنا أن نتّحد ونتضامَّ ونهيىء لنا رأياً عاماً، وصوتاً جهْوَرياً، ننبذُ بهما عن ملوكنا ما قد عهدناه من الغفلة والجمود؟ وندفع بهما عن أوطاننا مَا نتخوّفه عليها من سوء المصير، ونغنم شكر الأجيال القابلة وترحمها علينا، إن شاء اللّه تعالىٰ؟



* * *

# مشكِلةُ المحاكِم الشّرْعيّة[١]

إن يكن الكاتب أسيراً للقارىء، وإن يكن القارىء أسيراً للكاتب، كما يقال؛ فإن ما نكتبه من مقالنا هذا لا يتمشىٰ مع شيء من ذلك؛ لأن كاتبكم اليوم لا يرغب أن يستلين لآسرٍ، ولا يريد أن يسيطر علىٰ أسير، ولا أن يتقيد بغير المشهود لديه، وما هو إلا حرٌّ طليق، يذهب حيث ذهب نظره، غير متبجِّحٍ بإصابة عين الحقيقة ولا بإصابة كبدها؛ لأن الموضوع الذي أعتزمُ البحث فيه لم يتطرق الخفاء إلىٰ شيء من نواحيه، حتىٰ يؤكد الكاتب للقراء صدق ما يقول، وحتىٰ يستدرجهم من حيث يعلمون إلىٰ حيث لا يعلمون.

***

كلنا يعلم أن الحقوق المالية المسلوبة يسهل اليوم استخراجُها من مغتصبيها، بفضل السلطة التنفيذية التي بدأت تصْدُقُ في أعمالها صدقاً لا عهد للبلاد به من قبل، فيما شهدناه من السنين الغابرة، ولا ريب أن هذه السهولة ــ بطبيعة الحال ــ ستحذو بالجمّ الغفير من المظلومين في حقوقهم إلىٰ الاندفاع نحو المحاكم الشرعية للإدلاء بحججهم وبيناتهم القوية والواهية، ولا يألو الواحدُ منهم شيئاً من الجهد في نيل الظفر والفوز في المحكمة بما يدّعيه،

---

(١) مجلة «الإخاء»، السنة الثانية، العدد الرابع، ربيع الآخر ١٣٥٨هـ، يونيو ١٩٣٩م؛ (ص: ٥).

ولم يكُ خصمه من الجهة الأخرىٰ بالشخص المستسلم أو المتساهل في انفلات ما تحت يده مما قد استمرأ مرعاهُ ولذّ له وطاب، فهو يكاد يفضّل نزْعَ روحه علىٰ نزع ذلك التراث، الذي يخشىٰ أن يحكم عليه أيضاً بغلاته طُولَ ما هو مسؤول عليه، إذا لم يثبت له حق في ذلك.

ولذلك؛ ترىٰ المحاكمَ الشرعيّةَ في وقتنا الحاضر مكتظةً بأربابِ القضايا، الذين يعانون ما يعانونه من طول الانتظار، ثم من الإخلاف.

وترىٰ كثيراً غيْرَ هؤلاء يتظلّمون ويستغيثون، حاملين دعاويَهم بأيديهم من دون أن يَجْسُروا علىٰ تقديمها إلىٰ المحكمة، لما قد تحصلوا عليه من العبرة بأولئك الذين ختمت رواياتهم في المحاكم بمَآسٍ مؤلمة، كتب عليها «سوءُ المنقلَب».

فيا لَضَيْعةِ تلك الآمالِ الجائشة في صدور أرباب القضايا المساكين، وقد أقبلوا ذُمّراً يُهرَعون نحو مصدر العدالة، ولسان الشريعة الغراء، والقانونِ المقدس الذي جاءنا في كتاب حكيم، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فإذا بهم يعودون وفيهم من صدمة الأسلاك الشائكة المحيطة بتلك الحظيرة الطاهرة، والألغام الخفية التي تنسف الآمال نسفاً، وتنزِع الثقة من النفوس نزعاً.

***

إن حضرموت اليوم في موقف رهيب هو غيْرُ موقفِها بالأمس، وهي اليوم علىٰ حافة شنخوب شاهق؛ فالويل لها إن زلّت قدمها عنه، إذ لا يردّها عن التدهور المستمر شيءٌ غيرَ الحضيض؛ فإن الاحتفاظ بمقام الشرع الشريف فيها هو البقية الباقية من حفظ توازنها وتمكين قدمها، وإلا فمَن ذا الذي لا يوجِسُ خيفةً من الأخطار المقبلة التي تتهدد استقلال البلاد في اقتصادياتها

ومواصلاتها، وتتسربُ إلىٰ شؤونها المقوِّمة لكيانها، إذا هي لم تجد من الشعب من يدرأُها منها بالحكمة والحنكة في الرأي، ويبذل النفس والنفيس في سبيل الوصول إلىٰ تلك الغاية البعيدة المنال، والمستعصية الدنوّ؛ كيف لا نتوجس الخطر ما دمنا لا نُحسن حتىٰ إدارة محاكمنا الشرعية التي عليها يرتكز صرْحُ مصالحنا الدينية والدنيوية، والتي هي من الأوّليات الضرورية لصيانة الحقوق ووقاية العباد من ظلم بعضهم بعضاً؟

وأنت ــ حفظك اللّه ــ إذا ألقيت نظرة واحدة علىٰ المدائن الكبرىٰ لداخلية حضرموت، كشبام وسيئون وتريم، تجد المحاكم الشرعيةَ بها شيئاً أجوفَ أو هيكلاً عظمياً لا لحم فيه، وتجد الرِّيَبَ والشكوك محيطةً بها من كل النواحي، وتجد المؤثرات الخارجية لها عليها مَساسٌ قوي قد يصرفها عن السبيل الذي خُلقت لأجله، وتجد الفوضىٰ والتلاعب يَميدانِ بها ميَداناً يكاد يأتي عليها، وتجد الإهمال قد غشّاها وإدارتها، حتىٰ لا تكاد تتحصل علىٰ قضية واحدة أو حكم واحد مثبتاً في سجلاتها! وتجد الفقهاء الخارجيِّين يتحككون بها ويتعقبون نظرياتها وينقضون أحكامها، ويضعضعون ثقة الدهماء فيها، فلا ينتصر لها أولياءُ الأمور، ولا يحاسبون المعترضين علىٰ هذه الجرأة التي تضر بمقام الشرع الشريف ومركزِه.

وتجد السلالم والدرج في بعض هذه المحاكم هي «قاعاتِ الانتظار»! التي يتكدس فيها أربابُ القضايا المنكود والمحظوظ أكداساً، ينتظرون استدعاءهم إلىٰ قاعة الحكم الرهيبة، وتجد مع هذا كثيراً من القضايا يظل مرتطماً في حَلْقِ المحكمة؛ لا هي تستطيع ازدراده ولا هي تستطيع لفظه؛ بينما أصحابها المساكين يجوبون البلاد عرضاً وطولاً يستغيثون بدون غياث ويصيحون بدون سامع.

كل هذا تجده جلياً في محاكمنا الشرعية، وهو حالٌ لا يصلح للبقاء، ولا ينتج إلا إصلاحاً تاماً أو مَحْواً تاماً؛ فإن أمثال هذه المهازل لا تنذر إلا بسوء المصير، ولا يعقبها غيرَ الإصلاح إلا محوُ هذه المحاكم ــ لاسمح اللّه ــ من بلادنا، وحصرها في عقود الأنكحة وقضايا الزوجية لا غير، وحلول قانون «نابليون بونابرت» أو القانون «السويدي» محلَّ شريعتنا الغراء السمحة التي لم يجنِ عليها سوانا، ولم يذهب بها إلا إهمالنا وإعراضُنا، وتفريطنا وأغْراضُنا، وحينئذٍ لا يفيدُ العيونَ بُكاها، ولا النفوس أسَاها، ولا يسعنا إلا أن نتحمل في الدنيا بثباتٍ عظيم ما ينال القَذَالُ من الصَّفع، والعِرْضُ من الهُوْن، والشرف من الأذىٰ، وأن نتقبل في الآخرة ــ لا قدر اللّه ــ إعراضَ الشارع الأعظم صلواتُ اللّه عليه عنّا، وسخْطَ حمَلةِ شريعته علينا، وأن نُهيىءَ نفوسنا للَعْن الأجيال القابلة لنا، ومقتهم إيانا، بما فرّطنا فيه من جنب الشريعة المطهرة، وبما جلبناه علىٰ البلاد من شؤم ووبالٍ، وخزي وإذلال.

من منا لا يستطيع أن يتخيلَ ما سيؤولُ إليه القطْرُ الحضرمي إذا انتزعت عنه الأحكام الشرعية؟ من منا لا يستطيع أن يتخيل ذلك وقد رأىٰ ما حلّ بالبلاد الإسلامية الأخرىٰ، التي أهملَتْ محاكمَها الشرعيةَ، وقصّرت في ضبطها وإدارتها، فأصبحت تتلكأ في حمأةٍ من الضيم، ودوْس الشرف، لا يتحملها أنْفُ العربيِّ المسلم، ولا غيرِ المسلم.

***

إن بقي لديكم ــ معشر الحضارمة ــ اليومَ بقيةٌ من الخير فهذا وقته، فارفعوه في سبيل إصْلاح المحاكم الشرعية، وإيصالها إلىٰ المستوىٰ اللائق بمقامها السامي، حتىٰ تضمنوا لأنفسكم ولوطنكم حياة طيبة تسعدون بها، وتوصلون سعادتها إلىٰ مَن وراءَكم من رجال الغد، الذين تكتنفهم الآن

أصلابُ الآباء، وبطونُ الأمهات، ونواعمُ الأقْمِطة.

ـ يجب أن تكون الهيئاتُ القضائية مستقلّةً في شؤونها، مختارة في إدارتها وأحكامها، ليس للارآء الخارجية عنها أن تتطفّل علىٰ موائدها، ولا لأي نفوذ كان أن يمَاسَّ شيئاً من اختصاصها.

ـ يجب أن تهتم السلطات بما يحوم حوْلَ القضاء من الشكوك والتُّهم؛ فتنزّهَ ساحته، وتضمن براءتَه، وتجعله ملجأً للمظاليم، وغياثاً للملاهيف، ومنهلاً شرعياً سهل الورود للطالبين، لا تتطرق إليه الريبة، ولا تتجه نحوه الظنون.

ـ يجب أن يرتَّب للقضاءِ وموظفي المحكمة من المعاشِ الشهريِّ ما يقوم بحاجاتهم، ويكفيهم مؤنةَ التطلُّعِ إلىٰ ما في جيوب الوافدين عليهم من أرباب القضايا.

ـ يجب أن يخصَّص للمنتظرين في المحكمة غرفٌ فسيحةٌ ذاتُ مقاعد أو فُرش يقعدون عليها مدة الانتظار.

ـ يجب أن تُقبل القضايا وتُباشَر وتفصل بأسرع مَا تسمح به ظروفها من الوقت، لئلا يتذمر أربابها فيسببوا بذلك لطخاً سوداء في سمعة المحكمة.

ـ يجب أن ينْبَذَ الإهمالُ والتفريطُ رأساً، فترتَّب القضايا بأرقامهَا، وتنقل هي وأحكامُها وتواريخُها في سجلِّ المحكمة كي يبقىٰ مخلَّداً في خزائنها.

ـ يجب أن تؤسَّس محكمةٌ عليا، تُستأنف فيها القضايا التي تعتَورُها الشكوك، وتحُفّ بها الريب، فتنقُضَ ما ترىٰ، وتؤيد ما ترىٰ، وحينئذٍ تقطع جَهِيزَةُ قولَ كلِّ خطيب.

ـ يجب أن يحاسَب حساباً عسيراً كلُّ من يتحكك بهذه المحاكم الرسمية، ويعترض عليها، وينتقض أحكامها، ويجهَدَ في تشويه سمعتها، فإنه بذلك يوجدُ الإحَنَ، ويوقد الفتن، ويسبب الاضطرابات، ويعمل علىٰ هدْم مراكز الشرع الشريف.

ـ يجب أن ننهض من الآن للعمل، ولا نقِفَ عند حد القول في المحافل، والكتابة في الجرائد، بل نتصدىٰ لمعالجة المشكلة المستعصية، نعالجها بكل ما نستطيعه من الوسائل الفعالة، حتىٰ نتغلب عليها، ونصِلَ إلىٰ الغاية المقصودة، إن شاء اللّه تعالىٰ.



* * *

# متّجهُ شُبّانِنا[١]

ألقىٰ إلينا البريد كتاباً هذا نصُّه :

(سيدي الأستاذ الجليل محمد بن هاشم

بعد السلام، إننا نطالع كتاباتك في «مجلة الإخاء» بشوق واهتمام، وقد صادف مقال «مشكلة المحاكم الشرعية» استحساناً عظيماً في الدوائر المتنوِّرة بهذه البلاد؛ فهل لقلمك السيّال أن يفيدنا إلىٰ أي منحىً من مناحي الحياة العامة يتجه شبّانُنا اليوم؟ إن كتاباتك يا مولاي الأستاذ لَمَرهَمٌ ناجع لبُرْءِ الجراحات الاجتماعية، أبقاك اللّه ذخراً لأمتك، آمين.

المكلا في جمادىٰ الأولىٰ سنة ١٣٥٨ هـ. محفوظ)

* * *

هذا ما ألقاه إلينا البريد، ونحن؛ إجابةً لرغبة مكاتبنا العزيز نكتب ما يأتي:

نعم! إنه فرضٌ علىٰ الباحثين عن مصير أيةِ أمةٍ كانت أن يهتموا قبل كل شيء بالتنقيب عن المتَّجه الذي يتجه إليه شبّانها والغايةِ التي ترنو نحوها

---

(١) مجلة «الإخاء»، السنة الثانية، العدد الخامس، جمادىٰ الأولىٰ ١٣٥٨هـ، يوليو ١٩٣٩م؛ (ص: ٣).

رغائبهـم، والوسَائل التي يُعدّونها للظَّفَـر في ميَادين تنـازع البقـاء وتجاذب الحيـاة، فإن مصير الأمة غـداً ــ لا محالـة ــ لن يكون إلا نتيجـةً لاتجاهات شبَّانها اليوم، وإن لصحيفةِ مستقبلها حروفاً غامضة لا تُقْرأ إلا علىٰ ضوء مرامي فتيانها في الوقت الحاضر.

إذاً؛ فالنظر في متَّجه شبَّاننا نحن ــ الحضارمة ــ لم يك من الفُضُول في شـيء؛ بل إن النظر في متجـه شبّاننا لم يكُ إلا لزاماً لمن له حقُّ الخوضِ في شـؤون أمته والتخوفِ علىٰ مستقبلها من أن يقع أسوأَ من حَاضرها هذا الذي نتكسَّعُ في حمْأَته، ونئِنّ من وطأته، ونعلم علم اليقين أنه ليس إلا نتيجة طبيعية لذلك الجمود الثقيل الذي ضرب علىٰ أذهان شُبَّان الأمس، وأعمىٰ بصائرهم عن أن ينظروا نظرةَ عزْمٍ وحـزْم إلىٰ ما لعلّه تأتي به الأيـام من تقلبـات الدهر وتصرفات الزمن نحو بلادهم وأمتهم.

فليتحمّل الناسُ اليوم مغبَّاتِ جمودهم بالأمس، وليصبروا صبْرَ الكرام علىٰ حرارة هذه المواقف التي أوقفتهم بها غفلتهم، وقِصَرِ نظرهم الحماريّ!

زعموا أن الحمار سأل البعير قائلاً: إنني عندما أسير أنظرُ إلىٰ ما تحتي من الأرض، وذلك فضـلاً عن قِصَـر قامتي، ودنوّ رأسي من القاع، ومع هذا فإنني كثيراً ما أعثرُ وأقَعُ. وأنـت، تسير رافعاً رأسك فلا تنظر إلىٰ ما تحتك، فضلاً عن ارتفاع قامتك أيضاً، وأراك لا تعثرُ ولم تقَعْ؛ فلم هذا؟

فأجاب البعير: إنني أسير رافعاً رأسي، ناظراً إلىٰ ما بَعُد عني، حتىٰ إذا رأيـت حفرةً أو حَجَرةً تحذّرتُهـا واجتنبتُها ما زالت بعيـدةً عني، فسلمتُ ولم أعثُرْ ولم أقع، وأما أنت فتنظرُ إلىٰ ما قرُب منك، فلا تشعر إلا والخطَرُ تحت قوائمك، فتقع فيه قبل أن تستطيع تجنبه!

* * *

وبعـد؛ فما هو متّجهُ شبابنـا اليوم؟ هذا هو السؤال الذي تقدم به إلينا المُكَاتِـبُ الأديبُ لنَشْره علىٰ صفحـات مجلة «الإخاء»، متحدثين إليهم بما نشاهدهُ لا بما نستنتجه من هذا الاتجاه الغير مُنضبطٍ والاندفاع الغير محدود.

وهذا سؤالٌ لو سألنَا عنه منذ ثلاثين سنةً لما كان جوابنا عنه حينذاك إلا نفْسَ الجوابِ الذي سنقوله الساعَةَ؛ وهو: أنه ليس لشبابنا ــ بارك اللّه فيهم ــ حتىٰ الآن اتجاهٌ عام يتّجِهُون إليه بشعورٍ واحدٍ، ونظرٌ واحد، وغاية واحدة؛ ذلك لأن الاتجـاه المشترك إنما تكوّنه الدوافع المشتركة، وهذه لا تتكون إلا بالتربيـة المشتركـة والتعليم المشترك؛ وهذا كله لا نعرفه نحن الحضرميين؛ فمن أين يتكون لنا رأي عام، وإحساس عام، أو اتجاه عام؟ فإنّ لدينا شبَّاناً كثيرين تذهبُ بهم في المبادىء والغايات الوطنية سبلٌ متعددة، وتتفرّع بهم طرائقُ متنوعة، وبين كل طريقةٍ وأخرىٰ سدٌّ منيع، لا يسمح لذرّةٍ من التفاهم أو التبادل الفكري أن تنفُذَ منه إلىٰ الأخرىٰ.

* * *

وإذا أنت تعمقْتَ في البحث؛ وجدتَ أن الجماهير من شبّاننا لمّا يعرفوا معنىٰ الحياة بعد، فضلاً عن أن يتذوّقوه، والمرءُ إذا لم يعرف للحيَاة معنىً فإنه يعيـش بدون متجه يتجه إليه غيرَ الأنانيـة وحبِّ الذات، والمرء إذا لم يعرف للحيَاة معنىً فإنه لا يكبر عليه أن ينفق الساعـات الكثيرة من عمره في البطالة، والحديثِ الفارغِ علىٰ كأسٍ من الشاي، وهذا هو اتجاهُه في الحياة.

ونحن إذا كنا نقصد بالمتجه: تلك الغايةَ التي يولّي المرء وجهه صوبَها بأقواله وأعماله، ويبذل قصارىٰ جَهْده في سبيـل الوصول إليها، فإننا لا نرىٰ لأكثر شبّاننا أي متجهٍ كان، غيرَ سفاسف الأمور! وغيرَ أمانيَّ خياليةٍ قد يتمناها أحدهم بدون أن يعمل لها شيئاً!

يتمنىٰ بعضُهم العلم، ويحسِبُه: «قام زيد، وقعد بكر»، ويحسِبُه: «رضي اللّه عنكم، قال المصنف»! فتراه يغدو ويروح وهو قريرُ العين، هادىء البال، ناعم الجسم، مغالطاً نفسَه بأنه يقصد غاية مقدَّسةً قد بذل في سبيلها كل غالٍ ومرتخَصٍ، وهيهات هيهات أن ينال العلْمَ بهذه المغالطة.

وينتحلُ القليلُ منهم الإصلاحَ ونفْعَ العباد، فيهذُرُ في المجالس والنوادي هَذْراً يذهب مع الرياح، ويمعن من الاقتراحات والانتقادات إمعاناً يُبرِم جُلساءه، ثم ينصرف إلىٰ منزله مُعجَباً بمَا أوتيهُ من أصالةٍ في الرأي، وقوة في العارضة، شاكراً لنفسه توَخِّي هذه الغاية السامية التي ضحّىٰ في سبيلها بوقته النفيس.

ويكتشف الأقلَّ منهم كلمةَ «الوطنية» من الجرائد والمجلات؛ فيصبحُ وطنياً في خيالِ نفسه، ويتّجه حينئذٍ إلىٰ الصّخَب، واللغَطِ، والقَنْص في الحارة فقط، ويتخذ من كلمتي: «المروق من الوطنية»، و«خيانة الوطن»، ذريعةً لكياد مواطنيه من العاملين الذين يتّبعونَ الصيدَ في أعالي الجبال وقمم الأصبار، والذين طال ارتضاعهم من أفاويق السنين ألْبَانَ التجارِب، وأدْرارَ الحكمة.

هؤلاء الأفرادُ القلائلُ هم أماثِلُ شبابنا الذين يضعون في مخيِّلتهم مبَادىء وغاياتٍ عامة، يزحفون نحوَها زحفاً فيمَا يتخيلون. وهم ــ علىٰ ما يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ــ أجدرُ مَن يحقُّ له الذكر في جواب السَائل حفظه اللّه، وهم بقلَّتهم لا يستطيعون أن يُحدِثوا أيَّ تأثير في مجرىٰ حياة الأمة، ولا في حمْلها علىٰ الاتجاه نحو غايةٍ معينة.

* * *

# بيْنَ الأمْسِ واليوم[١]



ماذا عسىٰ أن ينتظر القارىءُ الكريم من وراء هذا العنوان؟

إن كثيراً من القراء يتوقعون من العناوين ما لا يقصده الكاتب، ثم يعودون بعد ذلك بالنزول علىٰ أمّ رأسه بالعَتَب القارص، هذا إذا سلم من الشتم الذي لا يترك في عرض المسكين موضعاً إلا وشَغَله.

وأنا اليوم عائذٌ باللّه من مغبّة فشل القراء في نظرياتهم تجاه هذا العنوان، وأرىٰ من الأسلم لي أن أفاجئهم قبل كتابة المقال بما أقصده من ذلك.

إنني لا أقصد سوىٰ يسيرٍ من الموازنة بين حَالَي القُطْر الحضرمي وأَخلاق رجاله، أواخِرَ القرن الماضي، وأواسطَ هذا، والموضوع تاريخيٌّ وطريفٌ في نظري، إذ هو يكْبَحُ شيئاً من الغرور الجامح بعقلية كثير من شبَّان قطرنا المفتتنين بظواهر المدنيّة الغربية، والمخدوعين بمَسَحات من المعارف، العصرية والذين يرون أنهم أكثرُ نفْعاً للهيئة الاجتماعية من سلفهم، وأرسَخُ قدماً في الإصلاحات العامة منه؛ لأنهم ــ كما يزعمون ــ أشدُّ اتصالاً بالآدابِ الحاضرة، وأدقُّ طبْعاً، وألطَفُ أخلاقاً من سَابقيهم المُخشَوْشِنين في كل

---

(١) مجلة «الإخاء»، السنة الثانية، العدد التاسع، صفر ١٣٥٩هـ، أبريل ١٩٤٠م؛ (ص: ١٠).

حالٍ، والمتعصِّبين في كل مقام.

هذا هو مَا لعله يدور بخَلَد جماعةٍ ممن نفخ فيهم الغرورُ ببوقه، فذهبوا يعْمَهُون في الفيافي المظلمة بهذه الحياة، مستنيرين بنور الحباحب، وسادلين علىٰ الحقيقة ستاراً خلاباً يتمتعون بألوانه الزائفة طيلةَ الإقامة في هذه الدار، وقديماً كان حجابُ الغرورِ مِجَنّاً لأربابه عن أن تلفَحَ وجوهَهم نيرانُ الحقيقة المحرقة، فتردَّهم علىٰ أدبارهم وَجِلين، والناس يرون منهم ما لا يرون هم من أنفسهم، ويأسفون ضاحكين من تدهورهم الجنوني في ترَّهاتهم هذه تدهورَ الفَراش حينما يترامىٰ في النار.

***

ونحن اليوم إن نكنْ أسعد حالاً من أهلينا في شيء ما، فإنما هو هذا الذي سَاد من الأمان الذي حُرم منه أهلونا رحمهم اللّه، وهم قد جاهدوا في سبيل العثور عليه جهاداً عنيفاً، يتناسب مع هِممِهِمُ الكبيرةِ، وعزائمهم الفولاذية.

ولكنهم ذهبوا إلىٰ الدار الآخرة وروابي حضرموت ووهادُهَا مغمورةٌ بالظلم العشائري، وصدىٰ جبالِها وسهولها يرنّ رنيناً من دويِّ البنادق وصَيْحات الفتن؛ وكلُّ بلدةٍ تعِجُّ عجيجاً بالمفاسد والمظالم، وتقذِفُ بأعبائها إلىٰ خارجهَا فراراً من الضيم ومياسم الذل.

وإلا؛ فقد كانت حضرموت ــ إبّان ذلك العهد الرهيبِ ــ في عزلتها التامة، لا تعرف قاعُها أقدامَ الأوربيِّين، ولا جوُّها طياراتِهم، ولا أهلُها مصنوعاتِهم إلا فيما ندر، فكانت سعيدةً بنفسها، غنيةً بحاصلاتها، فمطعوماتُ أهلها من مائها وترابها، وملبوسَاتُهم من مَغازلِهَا ومَناسجِهَا، ومراكيبُهم من منتجاتِها ومربَّياتها.

في ذلك العصر السعيد، كانت حضرموت تتمتّع حقيقةً بلذةِ الاستقلال الاقتصادي والسياسي، وكانت سليمةً من رعونات المتمدّنين ومَغَامز المترفِّهين، ومرونة المحكومين، بل كانت ــ بسادتها، وسلاطينها، ومناصبِها، وقبائلها، وأبناءِ حاراتها ــ تكوِّن مجموعةً وطنية متينة المراس، صالحةً لجلائل الأعمال، لو وجدَتْ لها إماماً قائداً يتغلغل نفوذُه في قرارات نفوسها.

* * *

إي ولعمري؛ لقد تقضّىٰ ذلك العصر بخُشُونته ورجُوليته، وذهب رجالُه موفوري الكرامة، أُباةً للضيم، حُماةً للذّمار، لا تُغمَز لهم قناةٌ، ولا يقعْقَعُ لهم بِشَنّ، ولا يُداس لهم حَرَمٌ.

وجاء هذا العصر بمُلُوسته وخنوثته، وأقبل رجالُه منهوكي القُوىٰ، ضعفاءَ الإرادة، جبناءَ الضمائر، قد أخذ الترفُ بنواصيهم، وتملكت الرفاهيةُ خِناقَهُم، فخنعوا للدَّعة، وركنوا إلى الراحة، واستكانوا للذل، وأصبح الشعب الحضرمي يتخبط في دَياجِرَ حالكة، لا يدرِي إلىٰ أية هاوية تسوقه قدماه.

فهو يترجّىٰ في السياسة عطْفَ الإنجليز ورحمَتَهم، وينظر إلىٰ الأوروبيِّ مطلقاً نظَـرَه إلىٰ منقذٍ عظيم قد بعثته السماءُ لإسعاد الشعب، وجلْب الغِبْطة والهناءِ له.

وأما في الاقتصاد فقد أصبح الحضرمي لا يعيش إلا من فضلات الموتىٰ وجهودهم، ولم يستطع أن يضيف إليها في عمران بلاده شيئاً إلا النزر اليسير، وما قد يكتسبه بعض أفراده من المهجر فإنه يضمحلُّ ويتلاشىٰ حينما يصل إلىٰ الوطن؛ فيذهب ضحية التكاثر في البنيان والتفاخر في الترَّهات؛ وينطلق في إشباع شهايا نفوسٍ بهيمية، أو إثارة فتن وحروب داخلية تضر بالبلاد المنكودة

الحظ، وتعجّل بهَا إلىٰ الدمار، وبئس القرار.

ثم أرسلْ نظرك تجد الرجل في عهدنا الحاضر يظَلُّ رازحاً تحت أعباء العادات السافلة، مرتضعاً من أفاويق الاقتراحات النسائية ــ التي لا مبرر لهَا ولا مسوِّغَ ــ ما جعله يغدو ويروح وهو مكبلٌ بتلك الأكبال المتينة التي تضطره إلىٰ استنزاف كل ما بيديه من كفاف؛ ثم يضع كاهله بعدئذ تحت ديون سَاحقة تمحو نتائجها دياره وآثاره.

ولقد جن بعضُ أغنياءِ زماننا جنوناً مطبقاً بالبناء والتخزين، فهو لا ينفكُّ يقيم جداراً وينقض داراً، ويشيد داراً ويخرب جداراً. وهذه حَالقةٌ مَاضية تأتي علىٰ ثروة البلاد وتكتسح منتوجاتها، فإن كثيراً من البناة أوَّلَ ما يقصد إلىٰ بقعةٍ معمورة بالنخيل فيُعدِمُها نخلها ليشْغَلَ مكانه بالبناء الذي لا تجتني البلادُ منه أيةَ فائدة، ثم يأخذ صاحبنا في استهواء الغارسين والزراع واستمالتِهم إلىٰ مهنة البناء بدلاً من نفعهم العام بمزروعاتهم وغراسهم، فهو يَحْرِم البلاد ثمار أبنائها ليروي غلة أنانيته الجشعة.

ثم يعمد إلىٰ الجِمَال التي تخدم البلاد في المواصلات، وجلب الأقوات، وسقي الحرث، فيحتكرها في حمل التراب والمواد وما شابهها، إلى ذلك الأتُّون الفاغِرِ فاهُ لابتلاع ثروة الأفراد والجماعات.

ثم إن هناك في الأودية أدواحاً كباراً من أشجار النبق وغيره تظلل المسافرين بفروعها، وتسعف الجمال والأغنام بورَقِها، والرعاةَ والمارةَ بثمرها، وترسل بُخَارها فيساعد علىٰ تكوين السحاب ونزول المطر، فيأتي معاصِرُنا الأنانيُّ الجَبّار، ويساوم علىٰ قطْعِها فيقطعها، ويقطع بذلك منافِعَها العامة ليستعملَها في غرَضه الخاص.

يعْتَبِر من يرمي مالَه في البحر غيْرَ رشيدٍ، وهو مع ذلك لا يرزأ الإنسانية؛

فكيف بمن يفجع البلاد والأمة في مصالحها ومرافق حيَاتها قبل أن يرزأ نفسه؟

ولكن؛ ما هي الحيلة في الخلاص من مفاسد هؤلاء الأنانيين، وقد انتشر في جيلنا الحاضر مرَضُ التملقِ والدِّهان والمداجاة، وعَمَّ فيه «مسْحُ الجوخ» والمدْحُ في الوجه؛ فترىٰ الوجْهَ يتلوَّن أمام رفقائه بألوانٍ شتىٰ ووجوه متعددة، الأمر الذي لم يكن يُعهد في الجيل الماضي.

* * *

فكان لهذا المرض العضال أسوأ أثر في هيئتنا الاجتماعية، ونواحينا الأخلاقية، إذ قلّت الصراحة، وعدمت النصيحة، وخارت الشجاعة الأدبية، وانتزعت الثقة فيما بين أفراد الشعب، ولم يجد المرء من يُعتِبُه في وجهه، أو يردعه عن خطإِه، أو يبصره بعيبه، أو يبين له موقفه، والعاقل كثيراً ما يتمنىٰ أن يكـون له من أخيه المؤمن مرآةٌ توضح له ما في وجهه من الشين مما لا يدركه بنفسه، وفي الحديث: «إذا هابت أمتي أن تقول للظالم: يا ظالم؛ فقد توُدِّع منها»[1].

ولهـذا كثُـرَت المشاكل، وتعقـدت المسائـل، وسُلسِلَـت الحـوادثُ المنكرة، ولولا فقدانُ الشجاعة في جميع طوائف الشعب، وتكافؤ القوىٰ، وخوف الناس بعضهم من بعض، لَعَظُمَ الخطب، ولأكل القويُّ الضعيف.

* * *

---

(١) أخرجـه الحاكـم (٤: ٩٦) وصحّحـه، وأحمد (٢: ١٩٠)، والبزّار (٣٣٠٢ كشف الأستـار)، مـن حـديـث عبد الله بن عمـرو بن العاص رضـيَ الله عنهمـا. قـال في «المجمـع» (٧: ٢٧٠): أحـد أسانيد البزّار رجالـه رجـال الصحيـح وكذلك إسناد أحمد.

وقد كان الناس في الماضي يمتازون بمزايا حسنةٍ لها أثَرُها في مجتمعهم، لا وجود لها بين جيلنا، منها: الجرأة في القول وإظهار الخطأ لصاحبه، والتعاون علىٰ تربية النشء، وغرْسُ الفضيلة في نفوسهم.

وقد أدركنا ونحن في حضيض الطفولية طرفاً من بقية ذلك الجيل، فكنا نهاب كبار القوم ممن ليس لنا بنسيب، كما كنا نهاب آباءنا أنفسهم، وكانوا لا يتحاشونَ أن ينهرونا ويوبّخونا بقوارع الكلم إذا رأَوْا منا ما يوجب ذلك؛ فلا نستطيع رفعَ أبصَارِنَا إليهم تهيباً ووقاراً، وربما لطم أحدُهم أحَدَنا فيبلغُ الخبَرُ إلىٰ أبي الملطوم فيأتي إلىٰ اللاطم شاكراً له صَنيعه في نجله.

هو ذلك الجيل، وفيه تلك التربية، التي أنتجت من عباقرة حضرموت في كل منحىً من مناحي الحيَاة ما لا يُحصَوْن كثرةً، فأنتجت من جبابرة السياسة، وعمالقة العلم، وأسَاطين الولاية والصلاح ما يصعب سردهم، ولا يسمَحُ هذا الجيلُ الحاضر، الذي امتلأت معاطسُ أهله غروراً وصلفاً، بعُشْرِ مِعْشارهم!

واللّه المسؤول ــ الذي لا تنفد مواهبه ــ أن يجعل يومنا خيراً من أمسنا، ويجعلَ غدَنا خيراً من يومنا.

* * *

# كلمةُ ترحيبٍ[١]



أودّ لو يُطاوعني بناني فيخطَّ لي شيئاً أقوله في هذا المقام من عبقرية هٰذين الشَّابين المحتفل بهما؛ لأنني أولاً: أحسبُني من أوسع الحاضرين درايةً بقيمة منتجاتهما الأدبية للمجتمع الحاضر والآتي أيضاً؛ ولأنني ثانياً: لم أبرح أرصُدُ سرَيانَ نجميْهما في أبراج هذه الحياة منذ كانا من حلفاء مقاعد المدرسة إلىٰ أن صارا من رجال منصاتها. فلم يفُتْني ــ إذ كان قد فات غيري ــ شيء من بواكر ثمرات الاتجاه الثقافي الذي التزماه، فبدأ يؤتي أكُلَه كلَّ حينٍ بتوفيق الباري.

بيْدَ أنّ بناني، ولا أدري، ألسوءِ الحظِّ أم لحُسْنه؟ لا يريد أن يطاوعني علىٰ رقْم كلمةٍ أقولُها في هذا الموضوع؛ لأن من يحلّق في جو الستين سنة وهو لم يروِّضْ بعدُ لسَانه وبنانه علىٰ المدح في الوجه؛ فإنه لجديرٌ بأن يتعثَّر في موقف كهذا.

---

(١) مجلة «الإخاء»، السنة الثانية، العدد العاشر، ربيع الأول ١٣٥٩هـ، مايو ١٩٤٠م؛ (ص: ٦).

ــ ومناسبة هذه الكلمة: الترحيب بفضيلة السيد رئيس «جمعية الأخوة» الأستاذ محمد بن أحمد الشاطري (رحمه الله)، وعضو الجمعية السيد علي بن شيخ بلفقيه (رحمه الله)، عند قدومهما من جنوب شرق آسيا، بعد رحلة قضياها في إندونيسيا وسنغافوره وجزر الملايا استغرقت بضع سنوات.

ولست أُحبُّ أن يُفهَم عني أنني من أولئك الذين يعارضون انتهاج تنشيط الرجال بذكر فضائلهم أمامَهُم، ولا أنا ممن يجْنَح إلىٰ غمْط حقوق العاملين بالإعراض عن ذكر أعمالهم، والانصراف عن الثناء عليهم بهَا. كلا؛ وإنني لا أكتمُ إعجابي العظيمَ برجال «جمعية الأخُوَّة والمعاونة»، الذين هبوا لانتهاز هذه الفرصة، فقاموا بتكريمٍ ينبىء عن اعتراف بالجميل، وإجلالٍ للثقافة، وتشجيعٍ للبطولة، ويوجه أشعته إلىٰ الأجيال القابلة، فيعطيهم نسخة من مكارم رجالٍ حفظوا الجميل لأهله، وأثبتوا من مزايا معاصريهم مَا ضيّع أمثالَه غيرُهم.

وكما أننا نتلهف الآن شوقاً إلىٰ ما لعلّنا نعثُرُ عليه من آثار أهلينا، كذلك سيتلهّفُ متنوِّرو الأجيال القادمة شوقاً إلىٰ آثارنا، وإذا كنا قد اهتدينا بشيء من أضواء عقول سلفنا ومجهوداتهم؛ فإن أحفادنا أيضاً ستستنير بما تخلفه لها من أضواء وما نرسله إليها من أنباء[1].

لقد غرسوا حتىٰ أكلنا وإننا ... لنغرسُ حتىٰ يأكُلَ الناسُ بعدَنا

ونحنُ إلىٰ نقل مكارم رجالنا إلىٰ من بعدنا، أحوَجُ منّا إلىٰ إبرازها لمعاصرينا؛ فإن الرَكْبَانَ والبريد و«من لم تزوِّد»، كل هذا سينقل للمعاصرين ما تمخَّضتْ به أيامُ عصرهم، وما أنتجتْه همَمُ رجالهم، ولكنّ أولئك الآتين بعدنا الذين يتعطَّشون إلىٰ أخبارنا ويحنّون إلىٰ مناقبنا، ويفخرون بأعمالنا، ويشخصون بأبصارهم إلىٰ سماء تاريخنا، باحثين ومنقّبين عن سيرنا وآثارنا، فَرِحين بما لعلهم يستخرجُونه من كنوزنا، فإنه إذا لم نسطّر اليوم مِيّزاتِ رجالنا وأعمالَهم، فإن طوال القرون ستطوّح بتلك الميّزات والأعمال إلىٰ أعماق

---

(١) وصدق الأستاذ ابن هاشم رحمه الله؛ ما أبعد فراسته ونظره!

العدَم، وتُحْرم أولئك القادمين من أدب جمٍّ، وتاريخ نافع.

* * *

لقد أحسنَتْ «جمعية الأخوة والمعاونة» صُنْعاً بمَا أقامته من حفلة التكريم هذه، لأنها طبعتْ به علىٰ وجْنةِ العصْر شامةً أنيقةً تفيض جَذَلاً لمن يأتي بعدنا من هُواة التاريخ وغُواة الآثار.



ألا وإنّ محمداً الشاطريَّ، وعليّاً بلفقيه، لو لم يكُونَا حائزين ما وُهباه من العبقرية والنبوغ، لما أقَمْنا وزناً لمحمّدٍ الشاطري وعلي بلفقيه، فإن بيننا شبّاناً كثيرين من أواسط العلويين بيوتاً، نودُّ لو أتيح لنا أن نرفَعَهُم بالأكفِّ، ونملأ عنهم الصفحات ثناءً وشكراً؛ ولكن من لنا بذلك؟ ولا سبيل إليه ما دام إهابهم لا يكتَنِفُ إلا نفوساً بلا أرواحٍ، وأجساماً بلا أحلام؟

والناسُ أجدَرُ من أن يَمدَحوا رجلاً حتىٰ يـرَوْا عنـدَه آثـارَ إحسَـانـهْ

ومحمد الشاطري وعلي بلفقيه؛ طلبا فجدّا؛ فتعلّما فنبغا؛ فعملا فنجحا، وقيمةُ المرء ما يُحْسنُه.

* * *

وهنا كلمةٌ لا توجَّه إلاّ إليكم يا معشَرَ الشباب، فإنكم قد بدأتُمْ في الكشْف عن سُوقكم لخوض غمار هذه الحياة الملأَىٰ بالأشواكِ ومقامعِ الزجاج، ولْتعلموا أنكُم سترَون كثيراً وستَسْمعُون كثيراً؛ مما لا يخطرُ لكم الآن علىٰ بالٍ، من مسارِّ هذه الدنيا ومآسيها، فكونوا ــ وفقكم اللّه ــ مصابيحَ للمُدْلِجين في ظلام هذه الحياة، لا تطفِئُها كواكبُ الرياح، ولا تروّعُها تباشيرُ الصباح، واجعلوا غايتكم فيها هدايةَ الناشئين الذين سيخلُفُونكم في سلوكِ هذه المضائق الحرجة، واحتساء مَا يعرض فيها من الكؤوس الرَّنِقَة، حتىٰ يسعدوا

بكم وتسعدوا بهم، وتتحَصلوا وأنتم في الأجداث علىٰ جميل ذِكْرهم، وصالحِ دعواتهم، ومقبولِ استغفارهم.

واللّهُ المنعمُ المتفضِّل هو المسؤولُ أن يعيد علىٰ «الجمعية»، بل علىٰ البلاد؛ بل علىٰ القطر، بالنفْعِ التام الذي يؤمله المؤملون للوطن العزيز، من ثقافةِ أبنائه، ونُبوغِ رجاله.



* * *

# السِّتّون[١]



عرَضاً كنت أراجع تلكم السجلات التي كان سلفي الأقربون يسجِّلون بها تاريخ الميلاد والوفاة لمن يعرفون من أبناء البلاد؛ فوقع نظري فيما وقع علىٰ سطْرٍ بقلم المغفور له والدي[٢] هذا نصه:

«وُلد اليومَ المولودُ المبارك: محمد بن هاشم بن عبد الرحمٰن بن عبد اللّه بن حسين بن طاهر، وذلك سلخ الحجة سنة ١٢٩٩هـ، جعله اللّه من أولاد السلامة».

ومعذرةً إليك أيها القارىء الكريم عَمَّا أعترِفُ به من العجز عن تصوير ما استولىٰ عليّ من الشعور حينئذٍ.

* * *

إذاً؛ أنا ذلك المولودُ المشار إليه، وأنا هو الملفوفُ في القِمَاط عندمَا سال هذا الحبْرُ علىٰ الكَاغِد.

إذاً؛ أنا هو «محمد بن هاشم» الذي يتمنىٰ لي المسجِّل أن أكون من

---

(١) مجلة «الإخاء»، العدد الحادي عشر، السنة الثانية، ربيع الآخر ١٣٥٩هـ، يونيو ١٩٤٠م؛ (ص: ٦).

(٢) كانت وفاته في مدينة (عدن) سنة ١٣٠١هـ، بعد ولادة ابنه الكاتب بسنتين فقط.

أولاد السلامة، حتىٰ أصِلَ إلىٰ ما قد وصلتُ إليه من عناء الحياة وصرُوفها.

عجباً لوالدي ــ رحمه الله ــ أن يتمنّىٰ لي هذا الشأن، وهو قد قاسىٰ من كَبدِ الوجود ما قاسىٰ؛ لقد تخيلتُ القوابلَ تحْتِوشُني حينذاك، والقرابَةَ يتباشرون بوجودي، والديارَ تتجاوَبُ أصداؤُها بزغْردة الأفراح؛ فلماذا كلّ هذا؟ وغاية ما في الأمر أنني جئت حديثاً إلىٰ عالمهم المملوء بالنغَصِ والأكدار!! فهل من الشفقة والرأفة، أو من العدل والإنصاف أن يُعلنوا بشائرهم لأُشاركهم فيما يحتسونه من كؤوس العلقم والحنظل؟

إنه لو أتيح لي اليومَ أن أُدهَمَ بمولودٍ لاغتمَمْتُ له ملياً، ولأشفقْتُ عليه إشفاقي علىٰ كلِّ من رمَتْه الأقدار إلىٰ عبورِ طريقٍ موحشٍ مفْعَمٍ بالمخاوف والأخطار.

عام ١٢٩٩ هـ هو والله عامٌ شاسع عني الآن.

أحقاً كنتُ أنا موجوداً في ذلك العهد؟ إذاً أنا من بقية جيلٍ قد انقرض، وإذاً أنا من الجدارَةِ بمكانٍ أن أتشرف بلقب: «الوالد البركة».

وأذا دعَوْنَك عمَّهُنَّ فإنه نسَبٌ يزيدُكَ عندَهُنَّ خَبَالا

لقد اقتعدْتُ اليوم قمَّة «الستين»، وهي قمة قل أن يتمكن منها إلا الجوادُ المُصَلِّي[1]، وهي القمة التي يرفع المرتقي عليها بصره إلىٰ السماء فيناغي فيها من تقدمه من الأجيال التي كانت قد ناغته واستبشرت بقدومه إليها وهو في حلة القماط؛ فأصبحت الآن تستبشر بقدومه إليهَا وهو في حلة الكفن!

* * *

(١) المُصَلِّي من الخيل: الذي يجيء بعد الأول الذي يسبقه. «لسان العرب» (صلا). وهو كنايةٌ عن قرْبهِ من نهاية الأمر. (الناشر).

وبعد؛ فعلىٰ كل إنسان ما دام في هذه الحياة حقوقٌ للحياة، وإن علىٰ آباء «الستين» ــ إن كانوا ــ حقوقاً لا تزال ترْبُو رَبْو الأيام والسنين، لا تشفع شيخوخَتُهم لهم في التجاوز عن شيء منها. مهما كان «أبو الستين»، لا يصل إلىٰ هذا الشأو البعيد إلا لاغياً لاهثاً من طول المرحلة، ومن شديد ما يكابد فيها من تكاليف الدهر ومشاغل الأقدار؛ فإن حقوق المجتمع عليه لا تسقط عنه بحالٍ إلا بسقوط ورقته الذابلة من دوحة الحيَاة.

وإذا كان لرجال «الستين» حقٌّ في أن يستأثروا بالإجلال والتوقير، وأن يتصدروا المجلس في المحافل العامة، فإنما ذلك لقِدَم عهدهم بهذه الدار، التي طالما درسوا تعاريجَها، وخَبَروا مسالكها، وتجرَّعوا من حُلْوها ومُرِّها؛ ونالوا من خيرها وشرها؛ وتذوقوا من ملاذِّها وآلامها أكثرَ ممن حدُثَ عهْدُه، وقلَّتْ تجرِبته، ولم يعتمد إلا علىٰ حاضره، ولم يفقَهْ إلا شاهده، وشتَّانَ بين من يقيس ويستنتج ويسير ويتلفّت، وبين من يجري قدُماً لا يلوي علىٰ حادث يتَّعظ منه، ولا يستنير بماضٍ يعتبر به.

و«الستون» هي النصاب المؤهِّلُ لربِّهِ أن يؤدي للمجتمع تلك الدروس التي استقاها من مناهل هذه الحياة الطويلة، وليس ما يكدِّسُه المرْءُ من المعلومات والتجاريب في ظرف «العشرات الستِّ» بالشيء الذي ينفَدُ من الإنفاق، أو يستغني عنه لدىٰ المشاكل، فعليه أن يغتنم ذاكرته فيؤدي رسالته قبل أن يصل إلىٰ «حجَّة ودَاعِه» الأخير.

***

للمرء في «ستِّينه» أحاسيسُ ومشاعر يستمرىء بها ما كان قبل ذلك يتجرعه ولا يكاد يسيغه، ويتقزّز به عما كان سَابقاً يترشّفه ويتلمَّظُ منه، والمرء رهين العادة، وحليف الإلف، فمتىٰ ما أَلِفَ شيئاً مّا شقّ عليه فراقه، وإذا طال

ثـواؤه بمنـزلٍ رغـب فيه عن غيـره؛ ولذا تـرىٰ الشيخَ أحـرصَ علىٰ حياةٍ من الحَدَث، وأشد تمسكاً بالاحتراز والاحتياط، وأكثرَ تجافياً من الأخطار منه، وما ذلك إلا لأن الشيخ قد طال إلْفُه بهذه الدار وصرُوفِها، والتصق بها التصاقاً شدّدته السنون المتكررة حتىٰ أصبحَ من الصعب نزعُ غرامه بها، وتفانيه فيها، وفيما ألفه من شؤونها، وليس في «الستيني» ما يزداد قوةً غيرُ الحرص علىٰ ما قد رغب فيه وتعوّده، وإلا فإن الضعْفَ هو الذي ينهالُ عليه من كلِّ المناحي، وفي كل الخصائص.

والضعْفُ الهاجـم علىٰ «الستينيِّين» وإن يك مُوجباً للإجلالِ والحدَب عليهم، إلا أنه لا يبررُ لهـم الأعـراضَ عمّا يتطلّبه منهم المجتمَعُ من واجباتِ العضوية فيه، من إمداده بالإرشـادات الصائبة، ومشاركته في تأييد المصالح العامة، فإن مثَلَ الشيخ الذي تسولُ له نفسُه اعتزالَ المجتمع، والاكتفاءَ بتعْدادِ حبّات المِسْبحة، رغبةً منه بهذه الطريقة ــ فقط ــ في تنوير رَمْسه المُزمَع علىٰ الرحيل إليه، مثَلُ الزهـرة التي تحاولُ الانزواء علىٰ بعْضها سداً لنشْرها الذي هو روح ميزتها، وسرُّ وجودهـا، وحرْصاً علىٰ أن تخزنه ليكون زيتاً عَبِقاً بعد سقوطها؛ فلا هي نفعت بنَشْرها، ولا هي انتفعَتْ بزيتها.

***

وما يؤلمنا معشر الستينيين: أننا أصبحنا الأقليةَ الضئيلةَ بين رجال الهيئة الاجتمـاعيـة، ولذلك فلا يسَعُنـا إلا أن ننهَـجَ منهـجَ التأدب فـي الخطـاب، والمجاملةِ في القول مع أولئك الذين كنا بالأمسِ في موقفهم اليوم، وكنا نعتز كثيراً بقوّتنا، ونعتز بالْتِهاب نشاطنا، وكنا ننظر إلىٰ هؤلاء الشيوخ نظراً ظاهرهُ التوقير وباطنه التحقير، وكنا نحْسِب أنّ الأبدَ سيحفظ لنا هذه النسبةَ بيننا وبين من قبلنا، وبيننا وبين من بعدنا، فنظَلَّ شبانـاً وكهولاً، ويظل أطفالنا أطفالاً،

فإذا بنا اليوم ننتبهُ من حُلْمنا، ونجزم بغرورنا!

وفي الأمثال اليابانية: «إن أولئك الذين يكون مبدأهم احتقارُ الشيوخ؛ مثلُهم كمَثَل من يخْرِب بيتاً سيسكن هو فيه».

وإنني الآن أكاد أكون جازماً بأنّ طائفة من هؤلاء الأحداث الذين يقرأون مقالي هذا سيضحكون في أكمامهم عَجَباً وهُزْءاً من هذا الهراء، الذي هو في نظرهم غثٌّ بارد، لا يقصِد منه صاحبه ــ بزعمهم ــ إلا دفْعَ الشماتة عما هدمه من مركـزه الهرم، والاستهانـة بنعمـة الشباب التي انتُزِعَـتْ منـه انتزاعاً جعله يحاول عبثاً عدَمَ التحسُّر علىٰ فُراقِها، ولعلّي أستطيع إقناعهم بأني قد وقفْتُ موقِفَهم، ولم يقفوا بعْدُ موقفي، ومن حفِظَ حجةٌ علىٰ من لم يحفظ؛ ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ [ص: ٨٨].



* * *

# الأمَانُ بحَضْرَموت[١]

[للمستر دبليو. إنجرامس. أو. بي. أي

محاضرة ألقيت بالإنجليزية في ٣٠ يوليو سنة ١٩٣٠م

بدار الجمعية الآسوية المُلُوكية تحت رئاسة

السير «رونالد ستور»]

تعريب: محمد بن هاشم

## (١)

قال الرئيس بعد تقديمه المحاضر للسامعين: لمّا أن دُعيت لرئاسة حفلة هذه الليلة، كل ما أستطيع أن أعرفه عن حضرموت إنما هو:

أولاً: أنها ذُكرت في التوراة.

وثانياً: ما قرأته من بعض جُمَلٍ حديثة من قلم الميس (فرياستاك).

وبين التوراة والميس (فرياستاك) هوةٌ عظيمة، وأنا خالي الذهن عن غير هذا تماماً، ولكني وإن كنت ليس لديَّ علمٌ شخصي عن الموضوع، فإن كلاً منا يعرف شيئاً عن (الميس) و(المستر انجرامس)، وعن خدماتهما وأعمالهما

---

(١) مجلة «الإخاء»، السنة الثانية، العددان: ٦، ٧، جمادىٰ الآخرة ورجب ١٣٥٨هـ، أغسطس وسبتمبر ١٩٣٩م؛ (ص: ٩).

العظيمة العامة.

إن الأعمال التي نالا بها مكافأةً وفخاراً، والتي جرت في المجرىٰ العادي للخدمة المدنية؛ ليست هي بأكثرَ اعتباراً وأسمىٰ مقاماً من ذلك الشعور العجيب بالعاطفة الودية نحو تلك الأصقاع، التي من حقها أن تربح من رجالاتها وخدماتها.

ومن لم يكن يعلم شيئاً عن حضرموت؛ فإننا لا نذهب به بعيداً، بأن نحيله علىٰ المستر (انجرامس) ليتلقىٰ عنه في المستقبل شيئاً عنها، ولكنا سنستنجدُ بالمشار إليه ليتحدث إلينا هذه الساعة.

***

المحاضر يتحدّث:

منذ سنتين كنت وصفت في هذه الجمعية رحلتي أنا وقرينتي إلىٰ حضرموت، حيث توغّلتُ فيها في أواخر سنة ١٩٣٤م، والغرضُ من تلك الرحلة التي كانت رحلة اكتشاف لا غير، لأن القسْمَ الأعظم من الطريق أثناء القطر لم يزره أوربيٌّ بعْدُ، فالغرض منها هو عمَلُ تحقيقٍ واستقصاء عن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لتلك البلاد، وإيجاد اتصال بحكامها ورجالها الآخرين، وبذل النصائح بخصوص مستقبل الإدارة في البلاد.

علىٰ أن تلك الرحلة هي مَدِينةٌ بتعليماتها لزيارةٍ زارَها (السير برنارد رايلي) والي عدن سنة ١٩٣٣م، فقد كان قويَّ الشعور بأن هناك شيئاً ينبغي أن يوجد لمساعدة أولئك الناس الذين طالما التمسوا المساعدة. ويعتقد المشار إليه بأن مسَاعدتهم بدون مستخدمين سياسيين أمْرٌ لا يمكن حصوله، وقد جُمعتْ معلوماتُ تلك الرحلة وبلاغتها ونشرَتْ في تقريرٍ رسمي رقم (١٢٣)،

وفي مجلة هذه الجمعية، وفي مجلة الجمعية الجغرافية الملوكية.

وبمثابة نتيجة لتلك الزيارة: أنه قرر تقديم المساعدة، وذلك بأن الشيء الذي يمكن أن يُعمل لتعضيد السلطان القعيطي هو: أن يستأنف تنظيم قواته.

وإن الذي يمكن أن يعمل لمساعدة السلطان هو أن تشادَ له قوةٌ من الحرس القبيلي، بمقتضىٰ الأساليب التي قد بدأ الجري عليها في القسم الغربي من المحمية، وهناك مساعداتٌ أخرىٰ بسيطة قد صودق عليها أيضاً.

* * *

وعلىٰ هذا؛ شخَصْتُ أنا إلىٰ حضرموت ثانيةً لأُبْلِغَ السلاطين ما قد تقرر، فغادرتُ أنا وقرينتي (عدن) علىٰ ظهر باخرة. وصلنا (المكلا) في ١٦ نوفمبر سنة ١٩٣٦م، حيث تعرفتُ أولاً بصاحب السمو السلطان صالح بن غالب الذي فاز بالتاج منذ زيارتي الأخيرة. ومكثنا في (المكلا) أسبوعين نبحث الأمور مع سمو السلطان، وقد وجدته قلقاً ومشغول البال غايةً من جرّاء تشويش الإدارة في بلاده، ومتشوّقاً إلىٰ إصلاحها وترقيتها، ويتمنىٰ إحضار المرافق العصرية فيما يتعلق بالتربية والتهذيب، والشؤون الطبية، وترقية الزراعة، والتوسع في المواصلات، واستخدام الكهرباء، وغير ذلك.

وقد أكد لي سموه أنه يكابد مشقة عظيمة، إذ لم يجد كفؤاً ذا أهلية، ولا أميناً مخلصاً، يساعده علىٰ سياسة شؤون البلاد.

* * *

وكان وصولنا أول يوم في رمضان، فكانت مقابلتي مع السلطان صباحاً وأكثر اتصالي بالناس الآخرين مساءً، وقد وجدت أهل المكلا عموماً علىٰ

غايةٍ من الإخلاص والولاء للذات السلطانية، ومع ذلك فهم في الوقت نفْسِه متذمرون جِدَّ التذمر وساخطون من عموم الحالة. وجوُّ البلاد كلُّه متشبعٌ تماماً بالدسائس والمكائد، فكل شخص بهَا تقريباً يثلب الآخرين ويكيدُ لهم، لهذا صرنا محاطين بوسط من الشكوك والرِّيَب، كأننا تحتَ رقابةٍ من ممثلي الأحزاب.



وعليه؛ فقد ظهر لنا أنه من المتعذِّر أن نستطيع إنجاز أعمال كثيرة نافعة في جو كهذا، وكان نصيبُنا حسناً، إذ أتيح لنا السفر إلىٰ الداخلية عن طريق الشحر، والشحْرُ بنوعٍ مّا أحسنُ حالاً من المكلا، ولكن بهَا كما في أختها، فقد لقينا بها أصدقاء قدماء يخافون أن يأتوا إلينا، وكلٌّ يجْبُن عن الكلام إلا في الظروف السرية.

وأخيراً توجهنا علىٰ سيارة إلىٰ المَعْدي، حيث قد عُملت لنَا الترتيبات اللازمة من قبيلة «بَحْسَنِي» علىٰ أن يصحبونا طول بلادهم إلىٰ النقطة التي تصل إليها السيارات القادمة من حضرموت، وكنا علىٰ موعد من وصول سيارات أرسلها لملاقاتنا السادة عبد الرحمٰن وأبو بكر آل الكاف.

وهذا هو أول اتصالنا بقبيلة «بحسني»، وهم أشرَسُ أخلاقاً من بدو سَيْبَان الذين علىٰ طريق دوعن؛ لأن كلَّ همِّ الواحد من البَحَاسنة أن يبتزّ كثيراً من نقودنا بحسَبِ الإمكان، علىٰ أقلِّ خدمة يقدمها. وقد رأينا من بينهم شخْصاً أو شخصين جاهرانا بالعداء اعتباطاً، وبهذا اتضح لنا من خُبْثهم المحسوس أنهم من أسفل درَكٍ من البَدْو، وأنهم حقيقةً من الهَمَج المتوحِّشين.

وكانوا يتقاضَوْن منّا ثمن القربة من الماء ريالاً واحداً، ويبيعون علينا أرباعاً من ثَمَر جوز الهند بريال واحد؛ ونحن إذ ذاك مضطرون لشراء هذا الثَّمر، لأننا عندما وصلنا المحطة التي تصل إليهَا سَيارات حضرموت لم

نجدها وصلتْ بعْدُ، فأرسلنا من يبحث عن ثمر الجَوْز الهندي الذي كلَّفَنا اثني عشر ريالاً.

وفي الأخير شوهدت السيارات عن بعد مُقبلةً، فأسرع إلينا أحَدُ نَهّابي البحْسَنيِّين الكبار طالباً منا بإلحاح ولجاجَةٍ ريالاً أُجْرة اكتشافه قدُومَ السيارات وتبشيرنا بها! وقد دفعْتُ لهم كل ذلك مرغَماً من شدة ما أضْجَروني بصَخَبهم المستمرِّ في المطالبة بالبخاشيش المتنوعة.

وصرفْنا معهم يومين أمضيناهما في مضايقةٍ وكدَر، وكانوا قبْلَ أيام قلائل قتلوا شخصاً، فهم خائفون من هجوم عُصْبة القتيل عليهم ليلاً، فكنا نساعدهم في جمع الأحجار وبنائها علىٰ شبه طابية صغيرة، أو استحكامات دافعة، ولأجل مقابلة الشيء بمثله طلَبْنا منهم أجرةً علىٰ مساعدتنا في البناء، ولكن لا حاجة إلىٰ القول بأنهم لم يكونوا قطُّ ملتفتين إلىٰ هذا الرأي.

* * *

وأخيراً، جاءت السيارات، فامتطيناها عابرين بلاد المعارَّة الذين أيضاً لا يتخلَّون عن المضايقة بالبخشيش، خلافاً لما تقتضيه اللياقة، ووصلنا مساءً بيت آل بن يِمَاني ــ آل جابر، وفي الصباح وجدنا الطريق مسدوداً بحاجز من الأحجار، وإذا ببعض المكروهين من البدو يصْخَبُون ويصْرُخون في لِجاجٍ بأنْ لا بدّ من دفع مئة ريال قبل السماح بالمرور؛ وهكذا أخذت المساومة تجري في التخفيض حتىٰ انتهت إلىٰ العشرة، وفي النهاية وصلنا (تريم) حيث نزلْنا في قصر (فيلا) بديع، تكتنفه حديقة غنّاء، وتتوسطه بركةٌ للسباحة، وذلك في الضاحية (عيديد)، شيِّد حديثاً بعد زيارتنا السابقة.

ووصل السلطان عليُّ بن المنصور والسيد أبو بكر الكاف من سيئون لملاقاتنا، وهذا قبل دخولنا في العمل، وكانت آمال الناس ضعيفةً في قبول

التمـاس المسَاعـدة، كما أن عندهم غاية التلهف والرغبة لعمل شيء حاسم يقطع دابر القتل واللصوصية اللَّذَين لم يزالا يومياً يملآن فراغاً عظيماً في القُطْر خصوصاً.

وفي الوقـت نفْسِه حدَث حادثٌ سيـىء فظيع، وذلك أنّ جماعةً من آل علـي بن كثير سافروا من مقرهم الذي يبْعُـد إلىٰ جهة الشمال الشرقي في بلاد المَهْـرة، نحو مسَافة عشرة أيـام عن سيئـون، وقد وردوا حضـرمـوت، ولما غـادروا سيئـون عند عودتهم تصدىٰ لهم جماعةٌ من العَوَامر الذين لهـم أسوأُ سمعةٍ في معظم وادي حضرموت بما يرتكبونه من سفك الدماء؛ فقتلوا أربعةً من رجال آل علـي بن كثير، الذين ليس بينهـم وبيـن أحَدٍ مَّا بحضرموت أقلُّ خصومـة، ولكـن العَوامِـر يقولون: إنهم كانوا حسِبـوا أن هـؤلاء من المهرة فقتلـوهم خطـأ، لأنهـم بينهـم وبين المهـرة دَمٌ، وهـذا الحال ــ أي دعوىٰ الغَلَط ــ في الحقيقـة قد يكونُ صحيحاً، غير أنه قليل الجدوىٰ في تَعْزية أبناء القتيل.

وعندما كنا بتريم ورد نبأٌ آخر بحدوث حادثٍ علىٰ بعد أميال قلائل من سيؤون، وهو: أن صائغاً ــ وهو من الطبقات الغير مسلَّحة ــ صعِدَ إلىٰ قَبيليٍّ من العوامر طالباً منه أن يسدِّد دينه، فقتله العامري علىٰ الطريق.

***

وهكذا تجري أمثال هذه الحوادث تباعاً، حتىٰ أصبحت مألوفةً عادية، ثم لما أن حصل الأمنُ أخذ الناس يقدّرون ما كان يذهب هَدَراً من الأنفس في كل شهر، فكانوا يقولون: إن وادي حضرموت وحْدَه قد رَبِحَ علىٰ الأقل شهرياً سلامَةَ عشَرةِ أنفس.

وكل قبيلي في الوادي متسلحٌ، ولم يكُ كلهم متسلحاً بالسّلاح البالي العتيـق، كما هـو شأنُ قسْمٍ عظيـم من البدو، بل إن من أفراد القبائل من هو متجهِّـزٌ بالبنادق الحديثة من الطـراز العصـري الخاص، التي تتراوح أثمانُها الحقَّةُ بين الستمئة والألف، فإن من أولئك الأغنياء من القبائل الذين يتحصلون علىٰ الثروة في الشرق الأقصىٰ من يتيسَّرُ لهم اقتناؤها بسهولة.



* * *

# الأمان بحضرموت[١]

للمستر إنجرامس



## (٢)

ومن يعلم صعوبة الأحوال لا يأخذه العجب من أنّ وجود المئتي عبْدٍ من عبيد السلطان المتسلحين بالسلاح العتيق من طراز (لِقْراسْ رِيفِلْ كَيف) لم يُحدثْ أثراً في مجاري الأحوال التي قد اطلعتُ عليها أنا علىٰ شدة تعقدهَا وتعَصِّيها، وكنت قد جئت أيضاً علىٰ أمَلِ أن نصل إلىٰ إنهاء مشكلة من أعاظم المشاكل، وهي التي بين «ابن عبدات» و«بَلْفاس»، فخيذتان من آل كثير.

وقد تفاوضْتُ أنا والسيدُ أبو بكر بهذا الصدد طويلاً، والسيد أبو بكر المشارُ إليه هو من عظماء القطر الذين أُكثِرُ الاجتماع بهم، ولد بسينغافورا حيث كان أبوه أقام بهَا سابقاً لتأسيس ثرْوةِ العائلة.

وفي تلك الأيام الغابرة لم تَكُ (عائلةُ الكاف) كلُّهم علىٰ سَعةٍ من اليسار، وحتىٰ الآن لم يكونوا أفرادُ (عائلة الكاف) كلهم عائشون في بحبوحةٍ من الغنىٰ، وإنما أولئك الذين يسكنون بتريم وسيؤون فقط هم الذين سَاهموا

---

(١) مجلة «الإخاء»، السنة الثانية، العدد الثامن، محرم ١٣٥٩هـ، مارس ١٩٤٠م؛ (ص: ٧).

في الثروة الضخْمة التي كان والدُ السيد أبي بكر شادَ أسَاسَها، وكان قد غادر حضرموت ــ كما يفعل كثير ــ إلىٰ الهند الشرقية، وهنالك تحصل علىٰ مركَزٍ ككَاتب، وعندما توفرت له نقودٌ كافيةٌ ابتاع بِها داراً للإيجار، ثم امتلك غيره، وهكذا ظل سَائراً إلىٰ الأمام حتىٰ أصبحت عقاراتُ العائلة بسينغافورا تساوي نحو المليونين من الليرات الستر ليني، ومثل ذلك في جاوةَ أو يزيد.

* * *

والسيد أبو بكر غادر سينغافورا إلىٰ حضرموت عندما بلغ سنُّهُ ثلاثَ عشرة سنة، وبهَا ألقىٰ حرابه، ثم فيما بعْدُ زار مسقِطَ رأسه زيارةً قصيرة، وحكىٰ لي: أنه صادف أنْ كانت في ذلك الوقت حكومةُ مستعمرةِ البواغيز «سترليت ستلمنت» شرعتْ في إصلاح شارعٍ عمومي، فوجدوا أن هناك مسجداً قد اعترض علىٰ الطريق، ففاوضت الحكومة نُظّارَ المسجد علىٰ أن تبْني لهم مسجداً بدلاً من هذا في أحسن موقع، لكنه تقرر لدىٰ هؤلاء أنه بموجب قانون الشريعة الإسلامية لا يجوز تبديل الأرض الموقوفة بغيرها، لهذا لم يسَعْ جانبُ الحكومة علىٰ ما وراءه من قوةٍ إلا أن يخضع لهذه النظرية. وقد أحدث تأثيرُ هذه الحادثة في نفس السيد أبي بكر شعوراً بأن الحكومَةَ التي يمكن الاعتمادُ عليها والثقةُ بهَا في مساعدة حضرموت هي (الحكومة البريطانية).

وقد أخبرني بعض أصحابه: أنه كثيراً ما كان يجلسُ علىٰ حافَة الجَوْل المُطلِّ علىٰ مدينة (تريم) متأسِّفاً من حالة واديه المحبوب، ويقول: إنه سيبذل غاية جهده بجلب مسَاعدة الحكومة البريطانية في إصلاح القُطْر، وقد مضَتْ له أربعٌ وعشرون سنةً، وهو يشتغل في قضية الأمان، باذلاً جهْدَه وثروته، ولم يدَّخِر وُسْعاً في ذلك، ولكنه ــ ويا للأسف ــ لم يتحصَّل غالباً علىٰ نتيجةٍ مّا،

وذلك لأن سلاحه الوحيد الذي يقاتل به الفوضىٰ هو الدرْهمُ والدينار، والمرْءُ لا يستطيع أن يبتاع الأمانَ الثابت بالدرهم والدينار.

* * *

إنني منذ عرفْتُ السيدَ أبا بكرٍ لم أسمعْه قطُّ قال لأي شخصٍ كان كلمةً واحدةً قاسية، وربما كان أكبَرُ تفريطاته في الأمور أنه كان دائماً يرجو أن يُقْلعَ الأردياءُ من الناس عن نواياهم السيئة، ويتوقّعُ إقلاعَهم، وهذا خلُقٌ فيه لا يتغير أبداً.

وهو رجلٌ متديِّن تديناً صحيحاً، مقروناً بفهم واسع، ويخالطه شيءٌ يسمى تعصُّباً دينياً، وتديّنه الشخصيُّ جدير بأن يغبِطَه عليه كلُّ أحد؛ لأنه لم يكُ من المحافظين علىٰ الأشكال والرسُوم الصورية، ولكنه لم يزَلْ مدققاً في المحافظة علىٰ الصلوات المكتوبة، والصيام المفروض؛ لأن ذلك أصبح كالفِطْريِّ له، حتىٰ أنه هو الذي يذكّرُ الحاضرين، وينّبهُهم إلىٰ أوقات الصلاة، وهو يخبرهم عن تقىً وتعبُّد، ولكن لا يرهقهم بالتطويل، وقد سمعتُه مراراً يشير إلىٰ الذين ينقمُون عليه التخفِيفَ في الصلاة، والتغلّب علىٰ المصلين، ويقول: إنه لا يهمه قولهم ما دامَ للقبولِ ذرائعُ أخرىٰ.

وكان قد ابتنىٰ بأهله الذين في بيته منذُ نحو ثمانٍ وعشرين سنة، وهم لا يقلون عنه رأفةً وأخلاقاً.

فالسيد أبو بكر أصفىٰ سريرة وأسخىٰ يداً من كل أحد عرفته، ورغماً عن أنه لم يك فخوراً ولا متبجّحاً بصنائعه وإحسانه، فقد انتشر صيتُه في البلاد، حتىٰ أصبح يسمىٰ «حاتم طيِّىء حضرموت»، والذي أرجِّحه أن كلَّ من نزل ضيفاً عليه سيصادق علىٰ أنه أحسن مُضيفٍ علىٰ الإطلاق، فهو يجهّز الحجرات الرحبة المريحة إلىٰ الغاية القصوىٰ، ويجهّز لضيوفه الأوروبيِّين

المسلياتِ الأروبية، وهو نفسُه ينامُ علىٰ البسُطِ التي فوق الأرض مباشرة.

* * *

والحقيقَةُ هي: أنني لا أعرف في البلاد رجلاً آخر مثله نال هكذا باستحقاقٍ ثقةً عظمىٰ ممتدَّةَ الصِّيت، وذلك لأنه إنما يهتم دائماً بالمصلحة العامة لا الشخصية فقط، ولا بحزبٍ أو طائفةٍ مخصوصة.

وهو يبذل نقودَهُ بسخاءٍ في تحسين الأمْن بين رعايا القعيطي كما يفعل ذلك بين جماعة الكثيري علىٰ السواء، وهو قد سعىٰ أكثَرَ من غيره في إنهاء الأحْقاد الطويلة بين القعيطية والكثيرية، وهي الأحقادُ التي أصبحَتِ الآن لحُسْن الحظ تقريباً داخلةً في خبر «كان»، ولهذا فإن وسَام (سي. بي. اي) الذي تسلّمه السيدُ أبو بكر في قائمة الإكرام للسنة الجديدة، كان أجدَرَ وسا يليقُ به قطعاً.

فأنت ترىٰ بهذا؛ أنه لا يوجد هناك شخصٌ أمْثَلَ من السيد أبي بكر يمكنني الاعتماد عليه في المفاوضة في موضوع الأمان.

* * *

# الأمانُ بحضرموت[١]

بقلم: المستر إنجرامس

## (٣)

وقد اقترح علينا السيدُ أبو بكر أن نتوجه معاً إلىٰ سيؤن، ونعرض المشروع علىٰ من نعرِفُهم من الأشخاص الذين تُحتمل مساعدتهم.

وقبل أن نذهب؛ اتفقنا بشخصيةٍ معتبرة وهو (علي بن حَبْرَيش)، أعظمِ رئيسٍ «للحُمُوم». وقد جاء مع جماعةٍ من أتباعه ليقابلني علىٰ انفراد بتريم.

و«الحموم» قبيلةٌ عظيمة تنيف عن (٧٠٠٠) مقاتل، ومنذ أمدٍ طويل لم تكن علىٰ صفاءٍ مع القعيطي، ولا شك أن حكومةَ القعيطي الساحلية قد كابدَتْ منهم الأمرّين، و«الحمومُ» بدون ريبٍ كانوا يتحصلون علىٰ معاملةٍ من الحكومة سيئةٍ لا تقتضيها السياسة.

ومنذ خمسَ عشرةَ سنةً، رأىٰ ولاة الأمور أن أحسن طريقةٍ لإنهاء مسألة الحموم هو: أن يدْعُوَ جميع زعمائهم وقادَتِهم إلىٰ الشحر، ثم يُعملوا فيهم مذبحةً حاسمة، وقد كان ذلك بالفعل.

---

(١) مجلة «الإخاء»، السنة الثانية، العدد الثاني عشر، جمادىٰ الأولىٰ ١٣٥٩هـ، يوليو ١٩٤٠م؛ (ص: ٩).

فقد دُعوا وقُتِلوا كلُّهم، وبينهم والد (علي بن حَبْرَيش)؛ فمنذُ ذلك الحين لم يرضَ (علي حَبْرَيش) أن يدْخُل الشحر، رغماً عن أنه من حين لآخر يبتاعُ منه القعيطي مهادنةً سنويةً بمبلغ نحو (ألفين) من الريالات.

وكانت فحوىٰ كلامه معي: «أنا لا أحب حكومة القعيطي لأنها تظلمني، والقعيطيون يعتبروننا بدواً متوحِّشين، فهم يعاملوننا معاملة البهائم ويعوقوننا عن شغلنا الحيوي، وهو إيصالنا الحاجيات من الثغْر إلىٰ الداخلية، وذلك لأننا لا نرغب في دخول الشحر، وأنا أيضاً لا أريد حكومة الكثيري لأنه ليس لديه قوةٌ تساعدني عند الحاجة، ولا أرتاح إلىٰ حكومة الإنقليز لأنني في الواقع لستُ أعرف عنهم شيئاً، غير أنهم أصدقاءُ القعيطي، وسيساعدونه ولا يفيدونني شيئاً. وقد سمعت بقدومك، وأنك ترغَبُ في إقامة الأمن في حضرموت؛ فهل تريد أن تحمِيَني بحيث أتمكنُ من الحصول علىٰ ميناء ببلادي يكون ملكاً لي، وحينئذ ننال معيشتنا بهناء؟ أما إذا كنت لا تضمنُ لي بذلك فإنني سَأبحث عن حكومة أخرىٰ».

وأجبته: أنني في موقفٍ لا يخوِّل لي أن أعِدَه بذلك وعْداً جازماً، ولكن علىٰ كل حالٍ فأنا سأبذُل كل مجهوداتي، وأقدم لحكومتي تقريراً مرضيّاً في صالحه، ولكنّ الرجُلَ بقي متردداً في كون هذا الموضوعِ له أم عليه.

***

ثم رحلنا إلىٰ سؤون، واقترح السيد أبو بكر أن نجعل رابطةً بين كبيرين من كبار القُطْر، وهما: السلطان علي بن صلاح حاكم شبام والنائب عن حكومة القعيطي، والشيخ: سالم بن جعفر الكثيري صديق القعيطية والكثيرية معاً، والذي له يدٌ في «اتفاقية عدن» بين القعيطي والكثيري.

ثم توجهْتُ أنا عائداً في سيَاحةٍ قصيرة نحو موضع العوامر، الذين قتلوا

حديثاً الأربعَةَ من آل علي بن كثير على الطريق.

وعندما وصلتُ إلىٰ بقعةٍ تبعدُ نحو نصف ميلٍ عن دار الشيخ بـ«تاربة» حيث لا سبيل إلىٰ عبور السيارة، أرسلتُ رسولاً يلتمسُ من الشيخ أن يأتي لمواجهتي، وقد تقدمتُ أنا نحو بيته علىٰ قدمي نصف المسافة تقريباً، حيث لقيت الشيخ وبمعيته عدد من المشايخ الآخرين، يحيط بهم جمهور من أتباعهم خرجوا لمواجهتي، وابتدأنا في المحادثة، فكان من كلامهم أن قالوا: «إنهم يرتضون أن يسلموا أسلحتهم إذا كنت أرغب في إدارة بلادهم».

وكنت قد تركتُ السيد أبو بكر في سيؤن إلىٰ أن عدْتُ إليهَا؛ ثم توجهتُ إلىٰ شبام التي كان بهَا السلطان علي بن صلاح يرحّب بالمشروع، ومن شبام توجهت ماراً «بديار البَقَري» سُرَّةُ بقاعِ نهْدٍ ومحورُ الطريق هناك، وقد هُرع الناس لمقابلتنا، وكانوا يقولون لنا بصراحة: «إنهم غير راضينَ عن الحكومة البريطانية لأنها تركتهم هكذا، يعيشون في خوف متواصل، وفتن مستمرة». فأخذتُ أبيّن لهم مهمتي في توطيد الأمان، وأن الحكومة ستهتم من الآنَ وصَاعداً باستتباب الأمن في البلاد.

وفي اليوم الثاني؛ عند عودتي، عزموا عليَّ بالدخول إلىٰ حِصْنهم وصعِدوا بي فيه إلىٰ أعلىٰ منزل فيه يطل علىٰ كلِّ البقاع المجاورة، وذكروا لي أنهم يسْمَحُون لي بالقَصْر المقابل الفخم لسكناي، فيما لو أُتيحَ أن أحكُمَ تلك البلاد.

***

و(حريضَةُ) تتألم، كما أن (عَمْد) كلها تتضايقُ من المظالم والفتن، وإنّ المشاكساتِ هناك بالغةٌ أقصاها، فكلُّ شخصٍ يسعىٰ ضدَّ الآخر ويكيدُ له، وعلىٰ هذا فلا يجد المصلحُ شيئاً من الأمل في إصلاح الحالة، فانصرفت

عنها بدون نتيجة.

وقد رجعتُ إلىٰ (سيؤن) ماراً (بالعُقْدة) حيث استطعتُ أن أستميل الشيخ سالم بن جعفر إلىٰ صُحْبتي، وليلة وصولنا (سيؤن) دعانا السلطانُ إلىٰ مأدبةِ عشاءٍ فاخرة، وبعدها أقيمَ شبْهُ مؤتمرٍ تفاوضْنا فيه في شؤونٍ هامةٍ مفيدةٍ تتعلق بالأمان بحضرموت.

* * *

وهذه المؤتمراتُ تجري في جو ملتهبٍ من الحماس والغيرة، وقد تكررت الاجتماعاتُ بهذا الصدد، وكانت النتيجةُ بأن تقرر تحريرُ صكٍّ يقضي بميثاق هُدْنةٍ بين القبائل مدّةَ ثلاث سنوات، وتأليفِ لجنةٍ تدعىٰ «بلجنةِ أمانِ حضرموت» تنظرُ في جميع القضايا القبائلية، وتعالج ذلك بحكمةٍ وسلام، وتم تحرير المسوَّدة، فأعاد أعضاءُ المؤتمر مباحثاتِهم في إذاعتها وعرْضِها علىٰ العموم.

وكنت حينذاك أتأمل في أن حضرموت حتىٰ الآن لم يكُ لديها شيء تعرفُه عن أساتذة أوروبيين في موضوع كهذا، وإنما هو من نتائج مواهبها الطبيعية، وقد نشر إعلانٌ بقرار الاجتماع واستحسانه «صلح الثلاث السنين».

وحيث أنه لم يكن بسيؤنَ صحيفةٌ دورية، فقد بُدىء بقراءة المسوَّدة في مجلس خاص بقصر السلطان الصيفي المسمىٰ «عز الدين»، ثم كُتِبَ منها عدةُ نسخ أُرسلَتْ إلىٰ المدن والقبائل؛ وقد وردت الأجوبة بالموافقة، غير أنّ كثيراً من الشك يخالجُ النفوس فيما إذا كانت الحكومة ستهتمّ حقيقة بما إذا حدثت مشكلةٌ توجب الاهتمام، ولم نجِدِ الوقتَ الكافي للتفاهم في هذا الموضوع؛ لأن السلطان قد استغرق أوقاته في تحية الواردين «أهلاً وسهلاً»، وتوديع الصادرين «في أمان اللّه».

وجاء في جواب بعضهم أنه لو أطلقت قنبلة واحدة علىٰ أحد جبال حضرموت لآمن الناس باستمرار الأمان.

* * *

وفي تلك الآونة ورد الخبَرُ بوصول القبْطان (بيتش) الذي كان المقصودُ من سفره إلىٰ حضرموت المسَاعدةَ في إشغال طريق السيارات، ولما أن وصَلَ إلىٰ مكان آل يماني من قبيلة «آل جابر»، اعترضه جماعةٌ منهم وأطلقوا علىٰ سيارته الرصاص، وهم أولئك القومُ الذين أوقفونا سَابقاً، وكان لهم السمعةُ السيئةُ للغاية في توقيف القوافل والسيارات وترويع المارة.

ومنذ نحوِ ستِّ سنواتٍ، همْ أنفسُهم أطلقوا النار علىٰ إحدىٰ السيارات وفيها بعضُ السادة، وأعقَبَ ذلك أن نهبوا في شهر رمضانَ قافلةً متجهة إلىٰ الوادي، فاستاقوها إلىٰ مقرهم «رِسِب».

وبموجب طلب السلطان صالح ــ بالمكلا ــ كنت قد سألتُ واليَ (عدن) بخصوص خدْمةِ القبطان (بيتش)، أن يساعد سموَّه في تخطيط الطريق ومسح البلاد، وفعلاً أنجز هذا القبطانُ مهمتَه فقرَّر (خطوطَ العرْض) و(خطوط الطول) لحضرموت ومدنها، ومسَحَ (طريق الكاف) بالجُمْلة، وقد وقعتْ حادثةُ إطلاقِ الرصاص ليلاً من قطّاع الطريق أولئك، وقد أخطأت الطلقةُ الأولىٰ، أما الثانية فأصابت مصباحَ السيارة...

* * *

# الفهرس


| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| مقدمة | ٥ |
| ترجمة السيد محمد بن هاشم، لعبد الله السقاف | ٩ |
| ترجمة السيد محمد بن هاشم، لعبد القادر الجنيد | ٢١ |
| قالوا في الأستاذ ابن هاشم | ٢٥ |
| الشعر الدارج (١) | ٢٩ |
| الشعر الدارج (٢) | ٣٣ |
| الشعر الدارج (٣) | ٣٧ |
| بين اللغة الفصحىٰ والدارجة | ٤٣ |
| هيئتنا الاجتماعية | ٤٩ |
| السلطان علي بن منصور | ٥٤ |
| بعد خمسين سنة | ٦٤ |
| سير المعارف بحضرموت (١) | ٧٣ |
| سير المعارف بحضرموت (٢) | ٨١ |
| العادات السافلة | ٨٥ |
| لا رحنا ولا جينا | ٩١ |
| قمة إيفرست (١) | ٩٦ |
| قمة إيفرست (٢) | ٩٩ |
| تأبين الملك غازي بن فيصل | ١٠٢ |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| داءُ الغفلة | ١٠٦ |
| مشكلة المحاكم الشرعية | ١١٠ |
| متّجَهُ شُبّاننا | ١١٦ |
| بين الأمس واليوم | ١٢٠ |
| كلمة ترحيب | ١٢٦ |
| السّتون | ١٣٠ |
| الأمان بحضرموت (١) | ١٣٥ |
| الأمان بحضرموت (٢) | ١٤٢ |
| الأمان بحضرموت (٣) | ١٤٦ |
| الفهرس | ١٥١ |




❊ ❊ ❊



من مقالات الأستاذ

# محمد بن هاشم العلوي

(١٣٠٠هـ - ١٣٨٠هـ)



611726 454
15

دار الفنون للطباعة والنشر والتوزيع